كتاب السِّيَر

تأليف

أبي الربيع سليمان بن [illegible] المزاتي

تحقيق وتعليق: [illegible] سعيد مسعود

كِتَابُ السِّيَرِ

من تراثنا الأصيل

كتاب السير

تأليف

أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي

تحقيق وتعليق : حاج سعيد مسعود

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع
السيب - سلطنة عمان

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م

مكتبة الضامري للنشر والتوزيع
سلطنة عمان ص.ب ٢ السيب
الرمز البريدي ١٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهـــداء

﴿ وقل الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾
وحين اجتبى أبا الربيع ليقول في «سيره» فما قال:

□ ولكنه روى..
□ □ وعلى من مضى من الأخيار، انتقى
□ □ □ دررا، ومأثورات حسان..

□ □ □ .. وأنا أقدم لك تيسيرا «للسير»
□ □ في نسخها هدى.. وعظات.. بليغات
□ للذين هم لربهم يرهبون

.. هدية لي. ولك ولمن يلونك
وسوف تسألون»

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لفضيلة الشيخ قشار بالحاج

الحمد لله الذي نوّر عقولنا بالإسلام، وهذب أخلاقنا بالصلاة والصيام، وحسن سلوكنا بما سطر من سير أنبيائه ورسله الأعلام، والصلاة والسلام على من كانت سيرته نوراً يستضاء به، وهديا يتأسى به، فقال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (١)، وعلى آله وأصحابه الذين صدقوا وأخلصوا فكانوا نعم المقتدي، وأعلى مثالاً يتأسى، وبعد:

ففي هذا العصر الذي طغت فيه المادة على الروح، واستولى سلطانها على العقل والتفكير، وباتت الدنيا وحطامها هي الشغل الشاغل، فهرعت النفوس وراءها وأعرضت عما هو أحق بالتفكير فيه والعمل لنيله وتحصيله وهي السعادة الأبدية والطمأنينة الروحية، والإستقرار النفسي، والسلوك السوي والمنهاج الراقي..

في هذه الآونة التي عم فيها بريق المدنيّة الخلاب، فاستولى على النفوس والعقول، وقد تأثرت بما تبثه وسائل الإعلام المادية بمختلف آلاتها السمعية والبصرية وقد أحكمت حلقاتها، وعظم أثرها، وعم خطرها جميع شرائح المجتمع، بما تبثه من سموم برامجها التي ترسلها لتغزو أفكارنا، وتستقر في اللاوعي منا، فأصبح المجتمع بمختلف شرائحه شبه دمى تتحرك حسب توجيهاتها من وراء ستار بما أحكمت به من تأليف يسلب العقول والألباب، ذلك لأن وراء مسيرتها أيد صهيونية خفية ترسل موجاتها من بعيد.

في هذا الجو المكهرب المفعم بما ينسي ربهم، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، وينسيهم واجبهم الديني والإجتماعي فانحرفوا عن الجادة، عن شاطيء النجاة، أقول في هذا الخطر المحدق يجب أكيدا على من ألهمه الله الرشد وحفظه من الضلال أن يتصدى لهذا الخطر المحدق بالأمة، خاصة شبابها المثقف بما يوازي تلك الإغراءات والدعايات المغرضة، بما يؤثر في عقولهم، ويرد الوعي إلى نفوسهم، ويغير من سلوكهم، ويصرفهم عما هم إليه

سائرون وإلى نهايته المهلكة متوجهون، تلك مسؤولية تتعلق بالدرجة الأولى في رقبة المتحملين لأمانة الوعظ والإرشاد في المساجد، والمجتمعات في المناسبات.

وبالدرجة الثانية على الشباب المثقف ثقافة دينية أخلاقية ممن تخرج من المعاهد الإسلامية، حين تتهيأ لهم فرص لبث الوعي الديني والأخلاقي في المجتمع، فيحملون مشعل التوعية والتثقيف لصد ذلك السد الجارف من الغزو الثقافي الملحد.

ومن هذا القبيل ما ظهر وشاع أخيراً من تأليف كتيبات ورسائل صغيرة الحجم عظيمة النفع، محصورة الموضوع في أسلوب سهل واضح.

ومن هذا القبيل ما حققه، وأبرزه الأستاذ مسعود الحاج سعيد من سير أبي الربيع سيلمان بن يخلف المزاتي في ثوب جديد يناسب العصر، سهل المأخذ، بتحقيق ما صحف من منقوله، وتوضيح ما خفي من عباراته، وشرح ما غمض من معاني ألفاظه، مع تصنيف فصوله وأبوابه، فأشهد أنه قد وفق كامل التوفيق حيث كانت

باكورة عمله المثمر أن يضع أمام شباب هذه الأمة هذا المؤلف النفيس من تأليف علماء مخلصين جادين، ونفوسهم صافية نقية، لم تصلها بعد سحب الإلحاد وبريق المدنيّة الساحر، نفوس تشبعت بنور الإسلام، واليقين بالله يشع في أرواحهم الطاهرة، فاختار المحقق سير أبي الربيع سليمان، فمن اكتفى بظاهر العنوان يظن أنه يجد أن التأليف عبارة عن تراجم عظماء كما هو لتبادر، لكن المؤلف رحمه الله تناوله (كما قال المحقق) المعنى الأصلي لكلمة السير وهو جمع سيرة أي سلوك.

فالمؤلف عبارة عن صورة واضحة، يضعها المؤلف أمام القاريء من السلوك الحقيقي للمسلم في جميع أطوار حياته، ومناهج سلوكه، فكان نموذجا حيا للطريق المستقيم الواضح بما جمعه من حكم غالية، وأحاديث نبوية، وأمثال عالية، لمن أراد ضمان النجاة في الآخرة والسعادة في الدنيا، والطمأنينة في النفس، والإستقرار في الحياة إذا التزم بتطبيقها.

فقد تناول المؤلف الجانب العلمي بما يجب أن يلتزمه

العالم نحو من يعلمه أو يفتيه، أو يحكم من تحقيق فيما يجمع، وتمحيص لما يثبت، ونصح فيما يبذل، وإخلاص في العمل يجعله في مصاف العلماء الناجين.

أما المتعلم فقد بين ما أعدّه الله له إن أخلص الطلب، وكان طلبه لنفي الجهل عن نفسه، ونفع أمته من غير قصد مباهاة أو تعال.

كما تناول جانب علماء السوء وما يعقبهم من خسارة وندامة يوم القيامة، وحذر الناس من ضلالهم، وذلك بإظهار ما يمتازون به من صفات ليتجنبها العالم البصير ويحذر المقلد من ضلالهم.

ثم ذكر الزمان وما ظهر فيه من فساد الناس، وانحرافهم عن السنن وإعراضهم عن الدين، وما نشأ عن ذلك من مجتمع ضال منحل.

ثم وجه القارىء إلى انتقاء الصاحب الناصح المعين على اكتساب الطاعات، المشرف بصحبته النافع بمرافقته، ومن جانب العمل فقد ذكر له ما يرغبه في العمل

والكسب الحلال، مراعيا أحكام الشريعة فيما يكسب مقتصدا فيما ينفق، مؤديا حقوق الله.

ثم حذر من الدنيا وغرورها مع الإستعانة بها عن بلوغ المرام من حياة طيبة في الدنيا، وسعادة في الآخرة.

ثم جملة من الأخلاق الفاضلة وآداب السلوك، وبالجملة فهو مرهم نداوي به ما انثلم من أخلاقنا، وحقنة روحية تبعث في نفوسنا وازعاً دينيا يدفعنا للعمل الصالح والسلوك السوي، وبالله التوفيق.

بنورة يوم 29 محرم 1411 هـ

20 أغسطس 1990 م

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله

□□□□ بين يدي الكتاب

(1) حول تصميم الكتاب:

حين تصفحت نسختي كتاب السير لأبي الربيع ابتغاء تحقيقه، وتخريجه شغلني أن أجد له صياغة منهجية تقوم عليها مادته، في تصميم منطقي مفصل ومبوب (علما أن كلامه متصل ومتداخل ينسي آخره أوله، كما هو معهود في غالب كتابات العلماء آنئذ)، وسألت نفسي: أليس لأبي الربيع مخطط ـ ولو ذهني ـ أقام عليه كتابه ونسج عليه أبوابه؟

مهما يكن من أمر، فليس من هدفي إخراج الكتاب من «الرف» إحياءاً للتراث وبعثا للأسواق فحسب، بل أهمني أن أقدم هذا العمل للقاريء الكريم بقراءة عصرية، ملائمة لروح الحاضر الثقافي وما ألفه الناس من منهجية في التناول العلمي، واستهلاك المعرفة، لذلك اجتهدت

أن أقدم الكتاب في:

● فصول ثلاثة: مشتملة على أبواب، ومنطقية هذا البناء المنهجي يقوم على تصور ذي ثلاث شعب

- يهدف الشيخ رحمه الله في الفصل الأول إلى بيان العلم، وأهميته، والإجتهاد في طلبه وتحصيله، بوصفه سلاحا يقود إلى النجاة في الدنيا والفوز بالفلاح في الأخرى، وقد قسمه إلى ثمانية أبواب وضعت لها عناوين من عندي بحسب مضامين نصوصه: تبين أخلاقيات العلم وآداب تحصيله وتعليمه، والتحذير من آفاته ومزالقه.

- ويهدف في الفصل الثاني إلى بيان فساد آخر الزمان وأهله بما بينه في بابين من ضياع السنن وموت الدين، واشتغال الناس بالدنيا وحظوظها وتهالك العلماء أنفسهم على المجد والشهرة وحب الثناء، والإدبار عن العلم النافع الصحيح الذي يراد به وجه الله وحده، إلا من رحم ربك.

فالرابط بين الفصلين هو موضوع العلم نفسه الذي غدا

وسيلة للترف المادي والمعنوي، من تفاخر واستعلاء، بدل أن يكون أداة بناء وإصلاح لفساد آخر الزمان وأهله.

- وينتهي في الفصل الثالث إلى تناول جملة من الاداب المتفرقة خدمة لموضوع العلم أيضا حتى يكون في سبيله المشروعة وكي يغدو ناجعا لإصلاح الفرد والأمة وحبل نجاة وسلام دنيا وأخرى لكل مسلم مخلص غيور على دينه ومعاده.

فقسمته إلى خمسة عشر بابا في إصلاح النفس، وتهذيب السلوك، من توبة واجتناب للغو، وفتنة الدنيا، والنساء، والتعصب للقبيلة والعشيرة بدل الإنتصار للحق والدين، وآداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضرورته لخدمة الدين والمجتمع، ثم بيان العزلة وجوازها، بل وأهميتها حين يفسد الناس ويتأزم حالهم.

(2) حول المنهجية:

لست أدري أيحق لي أن أقحم نفسي في «ملك» أبي الربيع فيما كتبه، وأن أتخذ له قالبا منهجيا صببته فيه من

فصول وأبواب وعناوين لم ترد في المتن، أقول لست أدري أيعذرني المنهج الأكاديمي، وحق الأمانة على ما للناس أم لا؟

إلا أن الذي يشفع لي فيما ذهبت اليه حرصي على تقديم «ميراث» شيخنا في خير حلة تناسب حاضرنا وأقوم منهج، تسهيلا للتناول ابتغاء نفع أعم وفائدة أشمل.

- فقد اعتمدت في التحقيق على نسختين: (وهما ملك مكتبة دار التلاميذ «اروان» بالعطف):

* رمز لإحداهما بالحرف (أ): وهي ملك محمد بن إبراهيم بن أبي علي العطفاوي، ولم نجد بها إسما لناسخها، إلا أنها كتبت بخط مغربي واضح بحبر أسود، يتخللها حبر أحمر في عبارات «وقيل»، «وقيل أيضا»، بلغ عدد صفحات هذه النسخة ستا وعشرين صفحة من مقاس 81 × 25 وعدد أسطر الصفحة 22 سطراً في المتوسط.

ورمزت للنسخة الثانية بالحرف (ب): وهي من نسخ عبد القادر بن الحاج الطيب بن الحاج سعيد.

كتبت بخط مغربي واضح بحبر أسود يتخللها الحبر الأحمر في كلمات «وقيل»، و «قيل أيضا» وأسماء الأعلام، بلغ عدد صفحات المخطوطة هذه أربعين صفحة من مقاس 15×21، وعدد أسطر الصفحة 18 سطرا في المتوسط.

على أن النسخة (أ) أحسن من (ب) في سلامة تعبيرها وكمالها، وقد أشرت في ثنايا الكتاب إلى كلمات كثيرة تسقط من المخطوطة (ب).، وأحيانا جمل وفقرات بلغت مرة نصف الصفحة.

كما أن الناسخ للمخطوطة (ب) لم يكن يهتم بسلامة التعبير وصحته فيما ينقل، حين يورد كلمات أو ينسخها دون مراعاة لوقعها في الجملة، الأمر الذي جعلني أعتمد كثيرا على النسخة (أ) من نسخ الشيخ.

- على أني أضفت لمتن النسختين كلمات أو تعابير من عندي تجدها بين قوسين دعت الحاجة إلى إضافتها داخل المتن نفسه حتى يستقيم المعنى ويتضح المقصود، كما

خرّجت ما ورد في «السير» من أحاديث وآيات قرآنية بين القوسين أيضا.

- أما الاستطرادات، وهوامش التوضيح، التي اقتضتها عملية التحقيق من تعليق على المعاني، ومعقبات على آراء الشيخ ونقوله، وتراجم لأسماء الأعلام التي وردت في المخطوطة، سوف تجدها مستقلة عن المتن بهامش الصفحة. بل في آخر الكتاب..

(3) حول المؤلف:

من هو صاحب كتاب السير؟

هو أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي، تعلم على مشائخ عصره، ومنهم الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني مؤسس نظام العزابة، وعنه أخذ العلم والسيرة، فقد قضى أيام صباه وشبابه في الدراسة، ليعكف بعدها على التدريس والتأليف، وتبليغ الأمانة، فكون جيلا من أنجب الطلاب، وبين للناس منهج الإسلام وسبله في دروس الإرشاد والتذكير، وترك لنا مؤلفات قيمة منها التحف في الأصول والسيرة.

ويروي لنا الدرجيني أنه «قد قرأ على الشيخ أبي علي، وأتقن عليه علم الأصول، والنظر وبلغ في ذلك مبلغاً عظيماً، ثم انتقل إلى جربة ليقرأ بها علم الفروع على فقهاء بني يراسن، أبي محمد ويسلان بن أبي صالح وأبي زكرياء، وزكرياء ويونس، وأبو بكر بن يحيى، فوافاهم في وقت اشتغالهم بأسباب لا يجدون بدا من مباشرتها، ثم قالوا فيما بينهم: لا ينبغي لنا أن ندع مثل هذا وحده (أي أبا الربيع) عاطلا من القراءة، وقد علمنا أنه قاصد إلينا، وعلمنا فيما قصد، لكن نقعد له يوما بعد يوم، فلا هو يتعطل، ولا أشغالنا، فإذا تفرغت أشغالنا تفرغنا لصاحبنا فصار يقرأ عليهم يوماً فكان على خير» (1).

فهو «قمة من قمم العلم الشامخة، ومكتبة حافلة بأنواع المعارف، حية متنقلة على أنه لم يكن من حملة العلم الجامدين الذين يحملون آراء غيرهم دون أن يكون لهم رأي بل لقد وهب مع الحافظة الواعية التي لا تكاد تنسى، فكراً نفاذاً إلى حقائق الأشياء، وبصيرة خبيرة بمواقع الأحكام، كان عالما بالأصول والفقه، درس كل

(1) عن كتاب طبقات المشائخ بالمغرب تأليف ابي العباس أحمد الدرجيني، تحقيق للأستاذ إبراهيم طلاي. الجزء الأول، ص 192,191.

ما وصلت إليه يده حتى بز جميع الأقران وفاقهم، فلما نضجت مواهبه، واستقرت معارفة تصدى للتدريس والفتوى».

وكان ذا خلق كريم وسماحة ولين، وتواضع وحب للمؤمنين، فقد رافق بعضا من طلابه حين أزمعوا على الرحيل إلى أوطانهم بعد انتهائهم من الدراسة، وسار معهم مسافة وأوصاهم: «امضوا بالسلام، فإذا وصلتم منازلكم إن شاء الله، فإياكم والدنيا أن تستقبلوها بوجوهكم، فإن من استقبلها أغرقته، ومن استدبرها فلا بد أن تأخذ منه، وعليكم بالألفة والنصيحة والتزاور، وحفظ مجالس الذكر، وإياكم وأمور الناس، وإياكم والتقصير فيمن يرد عليكم من أهل دعوتكم والسلام».

وحين أراد طائفة من الطلاب العودة إلى أوطانهم معتقدين أنهم أخذوا ما فيه الكفاية من العلم، وأنهم يستطيعون الإعتماد على الكتب لإستكمال علمهم، لم يرض لهم الشيخ أبو الربيع وأوصى العلامة أبا بكر أن يقول لهم: «اعلموا أنكم إن رجعتم على هذه الحال إلى أهلكم فأنتم كمن ترك الإسلام عمداً»، وليس أعنف من

هذه العبارة توبيخا على من يرضى بالأقل، أو يتملكه الغرور، فيحسب أنه قد ملك من الوسائل ما يصل به الغاية، ولا أشد تحريضا على طلب الكمال» (1).

أما الشيخ أبو زكريا يحيى بن أبي بكر فقد روى لنا في «سيره» أن «الشيخ انتقل من الجبل (نفوسه)، إلى (تمولست)، ثم إن التلاميذ طلبوا أن يدون لهم ديوانا من تأليفه ووضعه، فلم ينعم لهم بذلك، فمكثوا دهرا طويلا يراودونه على ذلك وهو يأبى لهم فألحوا في الطلب، فما زال حتى أنعم لهم وأجابهم إلى ذلك على كره.

ثم إن إبراهيم بن إبراهيم (2) رأى رؤيا أن جماعة التلاميذ أخذوا الشيخ أبا الربيع فنقبوا صدره، فنزعوا منه قصعتين من عسل، فلما انتبه من منامه، هاله ذلك وأقلقه حتى ظن بالشيخ أنه يموت عن عجلة قبل أن يصنع لهم شيئا.

ومضى إلى قابس (إبراهيم هذا) فسأل عن معبر

(1) النقول التي بين قوسين هي نصوص لعلي يحيى معمر، من كتابه «الإباضية في تونس»، مطبعة سيبا بيروت. ص 140,135.

(2) أحد تلامذة أبي الربيع نجد أخباره في طبقات الدرجيني، الجزء 2، ص 439,428,413.

الرؤيا، فاطلع عليه، فلما رآه سأله عن رجل أخذ قوم ينقبون صدره فاستخرجوا منه قصعتين من عسل، فقال له المعتبر: ان كان تاجرا صاحب مال، فإنه يستخرج منه المال كرها، فقال له إبراهيم: ليس بصاحب مال.

فقال له المعتبر، ان كان عالماً، فيستخرج منه العلم كرها قال له: ذاك.

فرجع إبراهيم إلى الشيخ والتلامذة فأخبرهم خبر الرؤيا وما كان من شأنها، فألحّوا على الشيخ في الطلب في تنظيم المسائل، فأخذ كبير تلامذته ألواحا فافترقوا على تأليفه، فإذا قام من مجلسه، وقد نظم لهم فنونا من العلم، يؤلفون كل ما جاز في مجلسه حسبما سمعوا منه فلما استفضوا كثيرا من مجالسه، وقد ألفوا ألواحاً كثيرة، أتوا بها فعرضوها عليه، فطائفة منهم أسقط ألواحا كلها، وطائفة أسقط كثيرا منها، وطائفة أثبتها، ثم عرضوها عليه مرة بعد مرة، ومكثوا زمانا يعرضون عليه الألواح، ينقص ويزيد منها، حتى حققها وأمر بتدوينها، فكانا دفترين يقال لأحدهما الأول، وللثاني الثاني.

ومكث الشيخ وتلامذته في (تمولست) ما شاء الله، ثم خرجوا منها، وكانوا عرضوا الكتب على الشيخ أبي عبدالله محمد بن سردين (1)، فلم يزد فيها إلا حرفين.

ومضى سائر التلامذة إلى الجبل وبقيت منهم بقية، فلما كان أوان رجوع التلامذة من الجبل، رجعوا إلى (تمولست) فمكثوا فيها سنتهم، واتصلت الأخبار إلى الشيخ وتلاميذه، أن منجا بن عفيل أراد اغتيالهم، وأرسلت بذلك بنو يهراسن إلى الشيخ، فكانوا كذلك إلى ذات يوم غدوة، عند فراغهم من الصلاة، فطائفة أخذوا في القراءة، وطائفة لم يأخذوا بعد في القراءة إذ سمعوا صيحة حول (تمولست، ابتدرت التلامذة اليهم بالرماح، فجاز بعضهم على بعض، فلما وصلوا الصيحة وجدوا منجا بن عقيل في خيل مغيرة على أهل (تمولست) وقتلوا رجلا من التلامذة يقال له زيري الرنداجي، فهربت التلامذة إلى الغار، فلما وصلوا إلى باب الغار، تراموا عليهم، فانحجروا فيه، والشيخ أبو الربيع خلفهم، فأدركه العرب ونزعوا كسوته وجرحوه رحمة الله عليه،

(1) راجع أخباره في طبقات الدرجيني، ص 398.

ثم انتقلوا بعد إلى موضع يقال له (توتير). فنزلوا فيه بالخيل، حتى صار منزلا ومأوى للعزابة، فجرى فيه العزم والإجتهاد أجلا قدره الله، حتى فشى خبره، وسمع ذكره في الخير، فأحيوا فيه السنن، وأقاموا سير من كان قبلهم من أهل الدعوة، حتى توفي فيها أبو الربيع سليمان بن يخلف رضي الله عنه وعنهم أجمعين» (1).

عام 471 هجري.

(4) حول تسميته بكتاب السير:

إن المتبادر إلى الذهن لأول وهلة من كلمة «السير» جمع سيرة، إنما هو تاريخ وأخبار الماضين، وحكاية مآثرهم ومناقبهم، وتقلبات حياتهم، كما نعرف عن سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر مثلا، وسير الشماخي، وسير أبي الربيع الوسياني وغيرهم؛ قلت كنت أعتقد أني سأجد شيخنا أبا الربيع سليمان ينسج على منوال أولئك الذين ذكرت، أعني سأجدني أمام أخبار الأئمة وتاريخهم ببساطة أمام كتاب تاريخ.

(1) عن كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص 188,187.

مصطلح خاص بالسير:

إلا أن الواقع لم يكن كذلك، فقد نحا أبو الربيع بسيره منحى فقهيا أخلاقيا تربويا كما سترى في مضمون مصنفه، وكأني به قد ضرب صفحا عن المعنى الإصطلاحي التاريخي المعهود من كلمة السير (تراجم وأخبار) ليعني بها الطريقة والسلوك

وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

(الجن: 16)

وستجد ذكرا لأسماء أعلام من مشائخ تعلم عنهم أو سمع عنهم لكنك لا تكاد تجد خبرا خاصا عن الشيخ الذي ينقل عنه رواياته وحكمه كذكر مولده ومناقبه وترحاله مثلا، بل أنه اقتصر فقط على ذكر كنياتهم دون أن يذكر إسمهم الكامل مما أتعبني في الترجمة لهم بحثا عنهم وعن أسمائهم في بطون كتب التاريخ والتراجم، لتشابه كنياتهم وتكررها.

ويهيمن أبو زكرياء فيصل:

على أن الشيخ أبو زكرياء فيصل بن أبي مسور قد استأثر بحصة الأسد من سير أبي الربيع حيث أحصيت أقواله ونصائحه فوجدتها بلغت أربعا وعشرين ومائة مقولة تتوزع على جل الأبواب في الفصول الثلاثة؛ مما جعلني أعتبر:

■ أن هذا الكتاب الذي أقدمه للقاريء بإسم أبي الربيع إن هو في حقيقته إلا ملك وتراث لشيخه المذكور أبي زكرياء فيصل بوصفه العمود الفقري للسير.

■ ذلك أن أبا الربيع حين استفتح الباب الأول في «طلب العلم» بذكر آية واحدة من القرآن الكريم في واجب سؤال أهل الذكر «إن كنتم لا تعلمون»، وعشرة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم للغرض نفسه، ترك شيخه أبا زكرياء يهيمن على مادة المصنف هيمنة شاملة حين فسح له مجالا واسعا طغى على جل الأبواب ـ كما أسلفت ـ لعرض إرشاداته وتوجيهاته المختلفة من وصايا وحكم وعظات في كل محور.

■ على أن كتاب السير هذا من أوله إلى آخره ليس إلا

عرضا ورواية للأقوال على أفواه العلماء والحكام تحت مادة قال، قال أيضا، وقيل عن. .

فليسمح لي القاريء أن أقول منهجيا فقط أنه (السير):

كتاب مقولات:

(1) فكان عدد آي الذكر أربعاً فقط أولاهن في باب طلب العلم، والأخرى في باب التحذير من القول بغير علم، والأخرى في الباب السابع، والأخيرة في باب الدعاء.

(2) وبلغت أحاديث رسولنا صلى الله عليه وسلم ستة عشر حديثا، عشرة في الباب الأول، وثلاثة في باب النصيحة وآدابها، وآخر في باب الإخلاص، وآخر في باب الدعاء وآدابه، والأخير أورده في الباب الأخير من السير.

(3) وروى قصة فيها ذكر لموسى، كما نسب مقولة لعيسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام، الأولى في باب «وإن للعلم آفات» والأخرى في باب «وجملة أخرى من آداب العالم».

(4) وكان لنصيب الصحابة ثماني مقولات تتفرق على الأبواب بحسب هذا الترتيب:

مقولة لإبن عباس، وأربعة منها لعمر بن الخطاب، وواحدة لعبد الله بن عمر، وواحدة لعلي بن أبي طالب، وواحدة نسبها لرجل قال عنه «ينسب إلى الصحابة» والأخرى لعائشة رضي الله عنهم أجمعين.

(5) ويفسح المجال لأبي محمد عبد الله بن ما نوج ليدلي بأربع مقولات.

(6) والشيخ أبو مسور يسجا بن يوجين سمح له بمقولتين. وظفر جابر بن زيد رضي الله عنه بمقولة.

(7) ولكن، الشيخ أبا يحيى زكرياء قد خصه بثماني مقولات.

(8) وأما الشيخان أبو محمد ويسلان، وأبو خزر يغلا ابن أيوب، فلم يؤثرهما إلا بمقولة واحدة، وستجد تراجم أولئك جميعا بهوامش المتن.

(9) أما ست وأربعون (46) مقولة فتركها مفتوحة

ومبهمة ترد في مادة قيل عن العلماء، قيل عمن مضى، قال غيره، وقيل أيضا وذكر عن..

هذا هو الهيكل التخطيطي لتوزيع مقولات السير لتتجمع في ثماني عشرة ومائتي مقولة (218)، يقدم لك فيها مجموع عظات بليغات، وإرشادات تربوية نفسية لإصلاح النفس وتزكيتها، ولزوم الطريقة والثبات عليها.

وغاب أبو الربيع:

لك أن تسأل بعد هذا، عزيزي القاريء: وأين هو أبو الربيع من سيره، لا هو يعلق على معنى، أو يعقب على رأي من آراء شيخه، أو على روايات من خلى لهم المجال، لك أن تسأله عن ذلك وتعاتبه عن هذا الغياب الكامل.

أما أنا فأختلف معك برغم وجاهة هذا الاعتراض لأني أكبر أبا الربيع من أجل اثنتين تشفعان فيه فيما أحسب:

ويعود أبو الربيع:

■ تلك الأمانة العلمية التي إلتزمها في روايات سيره حين تحرى نسبة كل مقال لصاحبه تحريا غريبا من نوعه، وإلتزاما عجيبا، لم يمل ولم يفتر من تسجيل مادة «قال» ثماني عشرة مرة ما بين قيل، وقال أيضا، وقيل عن هذه واحدة.

■ أما الأخرى فهي ذلك التواضع العلمي الحقيقي الذي تجلى فعلا في هذا المصنف بالذات، حيث لم يستنكف من الإنسحاب الكلي من تأليف يقوم به، فلا يفتأ يذكر له رأيا أو تدخلاً، أو تعقيباً؛ تعلم هذا جيداً ـ أخي ـ حين تعود لما ترجم له أبو زكرياء يحيى فيما قدمته لك من أنه لم يستجب لطلبته لما ألحوا عليه من طلب التأليف والتصنيف إلا بعد جهد جهيد ليكتب لهم ألواحا؛ لا جرم أن في نسخها لهدى أو سيرا للذين هم لربهم يرهبون، على غرار ما عودنا في «سيره». من أجل ذلك آثرت أن أحامي إكباراً وإحتراماً «فهي سجاياً يالها من سجايا».

والآن ماذا لو اقترحت عليك أخي القارىء إدراج ترجمة أبي زكرياء فيصل بشيء من التوسع في هذا المدخل

إعتبارا لوجوده الفعلي المستأثر بسير الربيع، وتمييزا له عن تراجم لأعلام آخرين سوف تجدها بحاشية السير.

(5) فمن هو أبو زكرياء؟

هو أبو زكرياء فيصل بن أبي مسور رحمه الله من علماء الطبقة الثامنة (350 ــ 400 هـ) «الطيب موردا ومرعى، الكريم أصلا وفرعا، المبارك عينا وآثارا، المحمود خبرا وأخبارا، ورث المجد عن أمجد الآباء، وأورثه الأبناء، وأبقاه فيهم مخلدا لا يفنى إلى يوم الفناء، فهم شجرة الدين، لأن أصلها ثابت وفرعها في السماء، إن ذكرت السباق في حلبة العلم كان المبرز، وإن ذكرت المخلصين وجدته لخصال الخير بأسرها أحَرز، أما عن ورعه وكرمه فيحكي عنه الدرجيني أنه «ربما عامل إبن وانموي (جبار متسلط) وأشباهه بالإكرام، وقابلهم بإطعام (تقية ومداراة) فإذا فعل شيئا من ذلك تبرع بإطعام مثله للعزابة، فالأولى وقاية للعرض وإبقاء للحرمة، والثانية تكفيراً عن الأولى، على أنه يقول: من حرث زرعا وحصده، ودرسه، وطحنه، وعجنه، وأطعمه الجبابرة بمنزلة من أطعمه الأولياء، فلكليهما حظ من الثواب،

وكلاهما يكتب عند الله صدقة، كما روي في الخبر».

أما عن اهتمام أبي زكريا فيصل بطلبته وإعانتهم سرا إخلاصا للعمل من جهة وكي لا يحرجهم بإنفاقه عليهم من جهة أخرى، فيروي عنه الدرجيني أنه كان «رحمة الله عليه يصرف الدنانير بالدراهم، ويجعل الدراهم في القراطيس، والصرر، ثم يعلقها في ألواح التلامذة، وربما يجعلها في أوعية دفاترهم، وربما جعلها بين التلميذ وبين ثيابه، وهم لا يشعرون، وكل ذلك منه رغبة في كتمان الصدقة، فلما مات أبو زكرياء رحمه الله، انقطع عن التلامذة ما كانوا يعتادونه من ذلك، فعلموا أنه إنما كان يفعل ذلك أبو زكرياء، وتحققوا ذلك».

أما عن فقهه وعلو كعبه في العلم وشؤون الشرع فإن الدرجيني يضيف أن أبا زكرياء بلغه «عن أبي بكر الزواغي أنه كان يقول: لسنا في دفاع ولا في ظهور، ولا في كتمان، ولا في شراء، ولكن زماننا سائب لتضييع الناس القيام بالحق، ولا يعني أن السائب وجه من الدين خامس، فقال الشيخ أبو زكرياء لما بلغه عنه ذلك: أخبروه أن مسالك الدين أربعة: الكتمان وهو الأمر

السابق لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ثم الظهور كحاله بالمدينة، ثم بعده أن أمر بالجهاد، ثم الدفاع كدفاع أهل النهروين الراضين بحكم إبن العاص وعبدالله بن قيس، ثم الشراء، كأبي بلال رضي الله عنه، فلو رأوا زماننا وأهله لأستحالوا التمسك بشيء من الدين» (1).

ويورد أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر في سيره مآثر عنه، وحكم كقوله: «بلغنا عن أبي زكرياء أنه قال: «إذا قحطت الأرض تنال الجنة بقبضة من طعام، وإذا قحط الإسلام تنال الجنة بكلمة حق تقال، وقحط الإسلام أشد من قحط الطعام، وقد اجتمعا كلاهما في زماننا هذا، وبلغنا عن أبي زكرياء أنه قال: ما علمنا كيف نتكلم ولا كيف نسكت، مع ما بلغه من العلم والحلم والصبر في أمور الدين (لاشتداد الفتن، وغربة الدين في أهله، حتى غابت عليه الحكمة في الدعوة، وقد قالوا: لو أن أحدا يوضع من حكمه ومنطقه دواوين، لكان هو أبو زكرياء)، (كيف لا، وقد طغت حكمه على سير أبي الربيع).

(1) هذه النقول تجدها في كتاب الطبقات (المصدر السابق). ص 364,363,362,361.

أما عن فطنته ودهائه فيحكي عنه صاحب سير الأئمة وأخبارهم رواية عن أبي زكرياء يحيى بن أبي زكرياء (1)، قوله: «اجتمع أبو زكرياء (فيصل) مع شيخ من شيوخ النكار (فرقة من الإباضية) من ملإ من زواغة (مدينة بغربي طرابلس- ليبيا)، وفيه الوهبية والنكار، فجرى بينهم كلام إلى أن قال له النكار: ياأبا زكرياء؛ نحن وأنتم كلنا نكار، فإنا قد أنكرنا على علي بن أبي طالب ما عل من التحكم، وقد أراد النكاري أن يلبس على الضعفاء بذلك متى وقع في مسامع العامة، فإن سكت أبو زكرياء ولم ينقم عليه، لزم الفريقين اسم النكار، ففطن به الشيخ وعلم أنه من بعض مكائدهم: فقال له أبو زكرياء: أما أنا فلست بنكار، فأفحمه وخيب الله كيد النكار، فتعجب الناس من فراسة الشيخ وبديهته، حتى قال القائل من زواغة: فلان يحتال على أبي زكرياء وأبو زكرياء قائم على نفسه».

وعن سعة فقهه وعلمه يردف أبو زكرياء (يحيى) أن

(1) تجد ترجمة في الطبقات (م.س). الجزء 2. ص 448 وما بعدها.

«أبا محمد كموس (ترجم لـه الشـماخي في سـيره «ص (370 ــ 471) مرض في آخر عمره، فطاف بـه الشيطـان وأخطر له بـالبـال، كيف ربـه، ومن أي شيء خلق حتى كاد الشيخ أبو محمد يهلك، فقال لأبي القـاسم يـونس بن أبي زكرياء (ترجم له الشـماخي في سيره ص (419) رضي الله عنه ائتني بأبيك يا يونس، وعجل علي، فإن الشيطان كـاد يهلكني على ضعفـي وكـبري، وأولـع بي في آخـر عمري. قال: فأسرع أبو القاسم السير إلى أبيـه، فـأخبره مخبر أبي محمد فأقبل إليه أبو زكرياء مسرعا، تـارة يمشي، وتارة يسعى ويتوكأ أحيانا على إبنه حتى قدم عليه، فقـال له أبو محمـد: هلم إلي حبيبي، فـإن الشيطـان مـولـع بي ويخيل إلى أن أكيف ربي، ويخطر لي بالبـال مـا أخـاف أن يهلكني، فقال له أبو زكرياء رضي الله عنه: إعلم أن كل ما يخطر ببـالك، أو يتمثـل في وهمك، أو يخطـر بقلبك، ويتلقاه ذهنك هو من خلق الله، ولا يخطر بالبـال إلا مـا أدركته الحواس، أو ما يشبه بما أدركتـه الحـواس، فـالله يتعالى عن شبه الأشيـاء، وقـد قيـل في بعض الآثـار: إن نفي هذه الخواطر عن الله تعالى محض التوحيد» (ما رأيك

أخي القارئ في هذا التطبيب النفسي الشرعي الذي لم يفت أبا زكرياء؟).

أما عن شكره لآلاء ربه وما أغدق عليه من الأنعم وسعة في الرزق فيروي عنه أبو زكرياء (يحيى) أن «امرأة سائلة وقفت إلى أبي زكرياء رضي الله عنه تسأله شيئا من الزيت تدهن به رأسها، وقد أخذ بها الشعث، فأخذ طنجرة ليجعل لها فيها الزيت ففك عن الخابية، فرآها نظر إلى ما اعطاه الله من السعة، وكثرة ما عنده، فصار يصب في الطنجرة وعيناه تنهملان دموعا، وهو يقول: بالله، ليس بيننا وبينك نسب تعطينا دون غيرنا ولكن برحمتك يا أرحم الراحمين».

وعن تبتله واجتهاده في العبادة يقول: «كان أبو زكرياء قد تعود الصلاة في موضع معلوم، فإذا طلع الفجر، نظروا إلى الموضع الذي يصلي فيه، فإذا هو قد ابتل بالدموع، كأنما توضأ فيه أحد من الناس».

وقدسأل أحدهم عن أبي زكرياء فقيل له: مات، يقول أبو زكرياء يحيى: «فمضوا به إلى قبره فقال: عاش حميدا،

ومات فقيدا، اللهم أخلف على جربة بعده، وقال أيضا: مات أمرؤ علم أنه سيموت» (1) ولعلمه أنه سيموت كان ما كان.

لعلي بهذه النتف استطعت أن أرسم لك صورة تأليفية تعرفك بمعالم شخصية أبي زكرياء ومكانته العلمية والذي آثره أبو الربيع بسيره من دون غيره، فأنعم به من شيخ فاضل لبيب، رباني حكيم، جدير بهذا الإيثار والإكبار، وبعد:

أخي في الله أحسب أنك فيما أقدمه اليك رصفا للقول، وبعثا للتراث، وتكاثرا في العلم، دون أن نجد له جميعا صدى وتجاوبا في السلوك و «السير» إصلاحا للحال وتبصرة للمآل، فإن استفدت مما وفرته لك، فأشركني في صالح دعائك على ظهر الغيب، في سجودك، وفي نفحات الله وأيامه، ولك مني مثل ذلك ان شاء الله.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله، والحمد لله رب العالمين.

(1) هذه النقول التي تجدها بين قوسين هي من «سير الأئمة وأخبارهم» لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، من صفحات: 167, 168, 169, 170.

كتاب السير

تأليف العلامة الشيخ أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي رحمه الله

الحمد لله المؤيد لأوليائه المعين لهم الذي لا ينال شيء من الخير إلا بمنه وفضله وإحسانه وتأييده. نسأله العون والتوفيق على عمل الخير والإحسان، والعصمة من الخطإ والزلل في القول والعمل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وبه زيادة العون والتوفيق الهادي إلى سبيل الرشاد.

﴿ الفصل الأول ﴾

باب في طلب العلم. وما ينبغي لطالب العلم والعلم المطلوب اليه، وما جاء في طلب العلم

روي عن الشيخ (1) وغيره من الصالحين: قال: «طلب العلم فريضة على بالغ صحيح العقل لقوله عز وجل:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾

(النحل: 43)

وقال النبي ﷺ: «أطلبوا العلم ولو بالصين» (أخرجه الربيع بن حبيب عن أنس). وقال أيضا: «طالب العلم يدعو له كل رطب ويابس حتى الحيتان في البحر» (رواه الترمذي بلفظ مختلف). وقال أيضا: «كن عالما ومتعالما ولا تكن ثالثا فتهلك» (رواه الترمذي).

وقال أيضا: «الناس رجلان عالم ومتعلم وثالث لا خير فيه» (أخرجه الطبراني). وقال أيضا: «من سلك طريقا في طلب العلم، أنه يوزن له في ميزانه سبعة أميال عن يمينه

(1) تقدمت ترجمته في المدخل، هو الشيخ أبو زكرياء يصل بن أبي مسور رحمه الله.

وعن يساره وأمامه وخلفه وما تحته وما فوقه إلى سبع أرضين وسبع سماوات يوزن له هذا كله حسنات» (لم نجده).

وذكر عنه أيضا (عن أبي زكرياء) أنه قال: «أعمال البر كلها في الجهاد في سبيل الله كجرعة ماء من البحر»، وقال أيضا (أي النبي ﷺ): «من سلك طريقا في طلب العلم سهل الله له طريقا إلى الجنة» (رواه مسلم)، وقال أيضا: «من تعلم مسألة من الحلال والحرام كعبادة سنة قيام ليله وصيام نهاره» (لم نجد تخريجه).

وقال أيضا: «من أفتى (في) مسألة كمن تصدق بكدية (قدر معين) من الذهب والفضة (لم نجده).

وقيل عن الشيخ أبي زكرياء: لو كان يزاد على ما قاله المسلمون، لقلت أنا كمن تصدق بكديتين من الذهب والفضة لحاجة الناس في هذا الزمان إلى العلم وقلة العلماء فيه، إذ لا نجاة إلا في العلم، وبالعلم عُبدَ الله وبالجهل عُبِدَت الأوثان، واستُحِل الحرام، وَارتُكبت المعاصي».

فينبغي لطالب العلم أن يجعل طلبه لله عز وجل ولما عنده طالباً وفيه مجتهداً، صابراً متواضعاً، حريصاً، خفيف المؤونة (الكلفة) على معلمه، راغباً في ساعات نشاطه، صابراً لصولته (لقهره) وضيق صدره.

وعلى المعلم أن يكون في إعلامه لمن يعلمه طالباً لما عند الله من الثواب، وحسن جزائه، وأن يكون صابراً لمن يعلمه فوق صبر من يتعلم منه (من التلاميذ) ويكون حريصا على فهم من يطلب منه، بود ورأفة ورحمة ولطف، وحسن السياسة (التوجيه) وحسن أدب، لله راغباً محتسباً، طالباً لما عنده.

وقال أيضا: «تعلموا العلم لتعملوا به، ولا تتعلموا لتباهوا به وتتزينوا به».

وقال أيضا: «احفظوا العلم حفظ رعاية (تفهم وتمكن) لا حفظ رواية».

وقال أيضا: «العلم علمان: علم بالقلب وعلم

باللسان، فعلم اللسان حجة على أهله (لا لهم لأنه لم ينفعهم إذ لم يجاوز حلوقهم)».

وقال أيضا: «العلم يحيى القلوب كما تحيى الأرض بوابل المطر».

وقال أيضا: «العالم العامل بعلمه ليس بين درجته ودرجة الأنبياء إلا النبوءة». (لذلك فإن العلماء ورثة الأنبياء).

وقال أيضا: «المؤمن العامل بعلمه لا يستفيد (1) باباً من العلم إلا زاده الله نوراً في قلبه، وخشية في نفسه، ومحقرة لنفسه (2) وانقياداً (3) منها، وان لم يعمل لله زاده (العلم) بعدا عن الله واستكباراً (4) في نفسه وعمى في بصره، وكسلاً في بدنه، وإستطالة على غيره، وقساوة في قلبه، أعوذ بالله من جميع ما لا يرضاه الله».

---

(1) جاء في النسخة (ب) يستفاد، والصحيح ما أثبتناه.
(2) سقطت كلمة انفسه من (ب).
(3) انعتاقا منها، وتحررا.
(4) ورد في النسخة (ب) استطرارا لكن الصحيح استكبارا.

وقال: ينبغي للعالم أن تكون له خزائن لا يدخلها إلا هو(1).

وقال أيضا: من جهالة العالم أن يفتي لكل من سأله».

وقال أيضا: «العالم في علمه كالطبيب في أوديته، لا يضع دواءه إلا حيث يصلح كل علة مع دوائها».

وقال أيضا: صونوا علمكم بالسكينة والوقار وحسن الأدب».

---

(1) لأن الخزائن تحفظ الكتب وتصونها من التلاشي والضياع، ذلك أن رأس مال العالم انما هو كتبه ومصنفاته فأحرى به يخزنها حفظا وكنزا، كما يحافظ ذو الثروة على ماله في خزائن، هذا، وقد يعني أن لا يدخل خزائن العالم غيره أن العلم دواء يعطي بمقدار وبوصفات محددة تناسب طالبها تماما كما يفعل الطبيب مع مرضاه الذين لا يدخلون صيدليته فيعيبون ما يشاءون إلا بعد أن يصف لهم الأنسب، لشفائهم، وكذلك العالم والمفتي ينفق من علمه بحكمة ودراية وميزان، لأجل ذلك فلا يليق أن يغشى خزائنه من هب ودب.

وليس هذا حكرا للعلم وكتمانا له، معاذ الله، لأنه حتى الطلبة أنفسهم لا يخلي لهم السبيل لخزائن الكتب الا بعد تمكنهم، ونضجهم واجازة أشياخهم وتسريحهم لذلك خشية التيه والضياع في بحور العلم والعرفان،،،

ثم أن خزائن العلم ترتبط بما نسميه نحن مكتب العالم وغرفته الخاصة التي يخلو فيها لمباحثه وتأليفه، فهي بمثابة المختبر العلمي الذي يعج بمواد كيماوية وأخاليط منها ما هو خطير ومضر، فالأجدر أن تصان وتحترم لئلا «يدخلها إلا هو».

وقال أيضا: العلم يحتاج إلى السياسة ما لا تحتاج السياسة إلى العلم (1)».

وقال أيضا: «احفظوا مجالسكم وصونوها، ولا تخلطوها بلهو ولا بلغو ولا بضحك لئلا تمجه القلوب».

وقال أيضا: «على العالم أن يعبد الله بكتمان علمه، ما لم يحتج إليه، فإذا احتيج إليه فلا يسعه كتمانه، فإن كتمه من أهله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» (2).

وقال أيضا: أول العلم الصمت، وحسن الإستماع إليه، ثم الحفظ والرعاية».

وقال أيضا: العلم كثير، والعلم المعمول به قليل».

---

(1) تلك السياسة التي اصطلحنا عليها حديثا بطرق البيداغوجيا في التربية والتعليم، وما استحدث من مناهج وتراتيب لبرمجة توزيع مواد العلم على مستويات تناسب كل سن، وتصلح لكل طور تبعا لنمو المتعلم ونضج مكانته، ولعلك خبير بما استحدثناه من تعلم أساسي ذي الأطوار الثلاثة والمستوى الثانوي والجامعي؛ هذه ترجمة لما قصده أبو زكرياء بلغة العصر.

(2) ويعضد قوله ذاك آية من كتاب الله عز وجل: (ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)، (البقرة: 159).

وقيل: العلم أكثر من أن يحصى، ولكن خذوا من كل شيء أحسنه (1)».

وقال أيضا: «تعلموا العلم قبل أن يرفع، ورفعه ذهاب أهله» رواه الربيع بسنده عن أبي هريرة برقم (24).

وقيل أيضا: لا يصلح العلم لطالبه إلا بعد ثلاثة: العالم النقاد البصير بفنون العلم، والكتب الصحاح، وسعة المؤونة وذهن حاضر (2).

﴿ غايات العلم، وأهداف التعلم ﴾

قال الشيخ رضي الله عنه: نية العلم أن لا يطلب إلا لوجه الله وليعمل به، ولنوازله (3)، وما يقضي به (الإنسان) فرائضه، ونفي الجهل عن نفسه، وطلب

---

(1) لأن من العلم ما هو ترف وتكاثر وفضول، حين لا ينفع صاحبه في معاشه أو معاده، ولا يترجم إلى سلوك وواقع، فهو إذن يربط بين العلم وما يهدف منه من تربية وتثقيف وتنوير، ويضاد نزعة العلم للعلم.

(2) نستشف من هذه القوانين الثلاثة التي يوردها الشيخ ما نسميه اليوم بالروح العلمية والنقدية (الناقد البصير)، والأمانة العلمية، والموضوعية (الكتب الصحاح)، والإنتباه (ذهن حاضر)، تلك الأخلاقيات التي عرفها الأسلاف في أبحاثهم وأعمالهم بوازع الإيمان وخشية الله وحده.

(3) من حوادث وشؤون مستجدة.

النجاة من عذاب الله، والفوز برحمته، ولا يطلبه ليعلمه لغيره، وإن كان لوجه الله خالصاً (1)، ولكن إن علمه بعد أن طلبه (غيره) فتعليمه (2) غيره محتاج إليه، طالباً (المعلم) لما عند الله، ففي ذلك الأجر العظيم (3).

﴿ وإن للعلم آفات ﴾

وقال أيضا: لا بد للعالم أن يسأل عن علمه في ثلاثة مواطن: طلبه لله، أم لغيره، فإن كان لغيره سقط (أجره وفضله)، وإن كان لله سئل عما تعلم أحق أم باطل، فإن كان باطلا سقط، وإن كان حقا، سئل أعمل به أم لم يعمل به (4)، فإن لم يعمل به سقط، وإن عمل بعلمه فهو حق و (إن) طلبه لوجه الله سعد بعلمه وفاز به.

---

(1) حرصا على إخلاص النية لله عز وجل، وسدا لذرائع المباهاة والتفاخر بالعلم، يؤكد الشيخ على عدم بث العالم لعلمه، إلا لضرورة تقتضيه ذلك حين يحتاج فعلا إليه، ولا يتنافى في هذا مع الميثاق الذي أخذه الله من أولي العلم: (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) حين نفهم مقصود الشيخ من تحري الإخلاص، وصدق المقصد في بث العلم.

(2) سقط «غيره» من (ب).

(3) لعلك تلاحظ قصر هذا الباب حين احتوى فكرة واحدة فقط، فمعذرة أخي القارىء، فمنهجية تصنيف الكتاب دعت لذلك، على أن وزن الفقرة ثقيل لو توسع في تحليلة.

(4) سقطت هذه الجملة كلها من (ب).

وقال أيضا: اتقوا الله في علمكم، ولا تكونوا جبابرة العلم (1)، ولا تتعلموا إلا لوجه الله، والعمل به طلبا (2) للنجاة واحذروا أن تطلبوه لتستأكلوا به الأغنياء ولتستخدموا (3) به الفقراء.

وقال: إياكم والأكل بالدين.

وذكر حديث رجل في زمان بني إسرائيل كان يتعلم عند موسى بن عمران حتى صار عالما (4)، فرجع إلى قومه فقام فيهم يفتي ويروي عن نبي الله موسى، ويقول في فتواه: هذا ما قال أخي موسى، . ولم يزد على ما قال ولم ينقص منه، فقام في قومه زمانا على حاله، ثم مسخه الله أرنباً فحار قومه في أمره (5) رجل عالم حل به ما يرون، حتى بلغ أمر ما أحل الله به إلى موسى، فقال لهم (موسى) أكان هذا؟ فقالوا له: كان يا نبي الله فطلبه (6)، فأتوا به إليه فوجده على الحالة التي ذكروها له، فأمسكه

(1) ابتعلاء، أو اتخاذ العلم مطية للتضليل، وغمط الحقوق، فذاك المكر والجبروت.
(2) جاء طالبا في (أ).
(3) وتخادموا في (ب).
(4) سقط صار من (ب)
(5) سقطت أمر من (أ)
(6) فطلبوه في (ب)

(موسى) في حجره، فقال: هذا أخي، فهم أن يسأل الله تعالى فيه أن يرده على حالته التي كان عليها، فأوحى الله إليه، فقال يا موسى: لو سألني فيه أهل الدنيا كلهم ما أجبت مسألته، لأنه رجل يأكل بدينه (1) نعوذ بالله من هذه الحالة.

وقال أيضا في علماء السوء: العالم الفاجر معدن الشر، فساده قل ما ينجبر.

وقال أيضا: إنما جاء فساد الدين من قبل ثلاثة رجال: عالم فاجر، وعابد جاهل، وطالب الدنيا بالدين.

وقال أيضا: للدنيا طرق تطلب منها، وشر طريق تطلب منه طلبها بالدين.

وقيل عن غيره (أي غير أبي زكرياء): لا ينجو من العلماء إلا مثل ما لا ينطفيء من القناديل في ليلة شديدة الريح (2).

(1) لأنه هو وأضرابه قد (يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)، (البقرة: 76). وهذا مثال للأكل بالدين.

(2) إشارة منه إلى الخطر البالغ الذي يحدق بالعالم حين يتخذ العلم وسيلة للتكاثر من تباه واستعلاء على الخلق، وسائر حظوظ النفس.

وقيل: في النار مطاحن لا تطحن إلا عظام علماء السوء (1).

باب في «التحذير والتخويف من القول بغير علم»

وقال أيضا في التحذير والتخويف في القول بغير علم: احذروا القول بغير علم.

وقال أيضا: احذروا القول بغير علم، ومن قال بغير علم، فقد أخطأ وإن أصاب عند الناس (2).

وقيل: القول بغير علم مذموم في كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ.

---

(1) سقط هذا القول بأكمله من (ب).

(2) قد تلبس الحق بالباطل. وتمره على الناس فيصوبون مقالتك لكنك آثم، لا تنجو من مؤاخذة ربك الذي يهلك: (ولا تقف ما ليس لك به علم)، (الاسراء: 36)، لأن الإفتراء والإدعاء حظير أمره، خسيس صاحبه.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

(الأعراف: 33)

وقال: إن من قال بغير علم (فهو) مذموم عند الله، وعند الملائكة، وعند الناس، وليس لقائل أن يقول: حتى يعلم أن الحق كما يقول (1).

ومن سئل عن مسألة فليمسك عن الجواب، فيدبر ويفكر في أمرها حتى يعلم الحق والصواب فيها، مخافة الخطأ، أن يقع فيه.

وقيل عن ابن عباس رضي الله عنه: أجرؤكم على الفتيا، أجرؤكم على النار (2).

وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسألة سئل فيها، فقال أن يهتم بها صاحبها، خير من إن اهتم أنا بها (3).

---

(1) لأن تحريه القول بعلم، واعتماد مصدر محقق وموثوق يكفيه تزكية بوصفه مبلغا وراويا، ولو لم يستكنه حقائق ما يبلغ، حين اكتفى بالتصديق والتسليم.
(2) حين يفتي بغير علم.
(3) تورعا وخوفا من القول بغير علم، وإلا فالعلم مسؤول حين يرجع إليه بأن يهتم ويفكر، ويبحث ليبين للناس ما نزل اليهم.

وقال علي بن أبي طالب في مسألة سئل عنها، فقال: الله أعلم، فلم يجب فيها، فقال: ما أبردها على الكبد، فكررها مراراً. فقيل له: لماذا؟ فقال: أن يقول الرجل فيما لا يعلم: الله أعلم (1).

وقيل عن عبد الله بن عمر سئل عن مسائل (2)، فألح القوم عليه في سؤالهم، فخرج عليهم مغضبا، فقال إنما أراد هؤلاء أن يجعلونا قنطرة لهم إلى جهنم.

وقيل عمن مضى: يمسكون عن كثير من الجواب فيما يعلمون مخافة أن يقعوا فيما لا يعلمون، يدفعون الجواب فيرده كل واحد منهم إلى غيره، وما ذلك كله إلا من طلب السلامة لأنفسهم من الخطأ والزلل، حتى يود أحدهم أن لو كانت الدنيا كلها علماء حتى لا يحتاج إليه، طلباً للسلامة.

وقيل: سيكون في آخر الزمان أقوام يود أحدهم أن لو لم يكن في الدنيا عالم (3) غيره، ولا يسأل(4) إلا هو،

(1) دون أن يستنكف من قولها، أو يجد حرجا في تكرارها، تواضعا، وإيثارا للسلامة والنجاة، خصوصا إن علم بمن هو أعلم منه فيكفيه.
(2) عن مسألة في (ب). (3) علماء في (ب).
(4) ولا مسؤولا إلا هو في (أ).

وذلك طلبا للدنيا، وحرصا عليها، وقلة الخوف منه على نفسه، وطلب النجاة لها.

وقيل عمن مضى من العلماء: أنهم وقفوا على كثير من المسائل ولم يجيبوا فيها شيئا، فأمسكوا عن الجواب مخافة على أنفسهم (1).

وقالوا اكتبوا سؤالهم (أي سؤال من سألهم) حتى يأتي أهل آخر الزمان فيجيبوه.

وقيل عن رجل ممن ينسب إليه العلم، ممن مضى: قال بعض تلاميذه: لو كنا نكتب ما أجابنا، وما لم يجب لكان ما لم يجب أكثر مما أجابه لنا، فهذا في زمن العلم والخير فكيف في زماننا هذا الذي قلت فيه العلماء، وذهب فيه أهل الخير إلا من شاء الله.

وقال أيضا: مر زمان على جبل نفوسة (بليبيا) فشى فيهم العلم، وكثرت فيه العلماء حتى لم يبق منهم منزل يرد مسألة إلى الآخر إلا من طريق الأدب وقيل إذا نزلت مسألة بلالوت (2) سارت إلى منازلهم إلى

(1) سقطت هذه الجملة الأخيرة من (ب).
(2) لالوت: قرية بجبل نفوسة (ليبيا) (مسقط رأس الشيخ علي يحيى معمر).

تغرمين (35) فيردها بعضهم إلى بعض حتى تبلغ منازلهم كلها ثم ترجع إلى المنزل الذي نزلت فيه فيجيبونها، وهذا من كثرة أدبهم وحسن سيرتهم (36)، وأهل زماننا على غير هذا، إلا من شاء الله، وما أظن هذا إلا لحرصهم على الدنيا، وحبهم لها عصمنا الله من حب الدنيا، وحب الثناء.

وذكر أيضا: عن الشيخ أبي يحيى بن أبي زكرياء (37)

---

(35) تغرمين: قرية ليبية.

(36) وتنصلهم من خطر مسؤولية الإفتاء والتحدث في العلم.

(37) أبو يحيى زكرياء بن أبي زكرياء (فيصل) من علماء الطبقة التاسعة (150-500 هـ)، درس عن الشيخ أبي عمار عبد الكافي (راجع ترجمة أبي عمار في «الإباضية في الجزائر» لعلي يحيى معمر: ص 206، صاحب «الموجز»، وحين استأنس أبو عمار من نجابته وتمكنه العلمي وتصرفه في فنون المسائل أجازه وأثبت جدارته العلمية، وجعل يروي العلوم إليه لثقته فيه «وله سجايا يالها من سجايا، جود كالسحاب، ودعاء كالشهاب، وحسن سلوك الطريقة، وحفظ العلوم الحقيقية، والتمسك من عرى التقوى بالأسباب الوثيقة»(*).

ويروي عن الدرجيني أيضا أنه حضر مجلسا من العلم بناحية طرابلس لشيخ من المشائخ، وسئل هذا الشيخ «عما يعمل من نبات الأرض كالحصير وما أشبهها هل تطهره الشمس إذا أصابتها نجاسة؟ فقال نعم، تطهره الشمس، فقال أبو يحيى: ليس هذا الجواب من المعمول به يا شيخ، كأنه لم يرض بهذا الجواب، فقال (الشيخ) بل المعمول به، وكرر صحته، وكرر أبو يحيى المنع، فقال (الشيخ) فإن الذي يقال في أولاد الشيوخ أنهم غير منقادين صحيح؟ فقال ابن أبي زكرياء، هل علمت أن عقبة المستجاب قال لأولاده: إياكم والمرخصين لئلا تفارقوا دينكم وأنتم لا تشعرون (*)

(*) النقول التي بين قوسين هي من طبقات الدرجيني ص 393, 394.

سئل عن مسألة يوما في جربة (بلد بتونس) فقال لسائله: إني سمعت بأبي محمد (38) (قد) دخل جربة.

(38) أبو محمد عبد الله بن ما نوج اللماني من علماء الطبقة التاسعة (450 -500 هـ)
«أحد من نظر، فأبصر واستبصر، وذكر حينا، فتذكر تلا في القوات بعد حين، واعتاض الاجتهاد بما ضيع عدد سنين، واطمأن بعد الحزن إلى السهولة، وعالج ما يعالج الشاب وهو في الكهولة، يسر الله له الورود من منهل الوعظ ألفاظا فارتوى، وبادر ولم يتباطأ، وجد لم يثن عن طلب الخير عنانه، ولا أزاح من الإجتهاد فكرته ولا جثمانه، حتى أصبح من العلم مفعم الوعاء، ومن القرب من ربه أهلا لإجابة الدعاء».
«ذكر أبو الربيع (سليمان) أن أبا محمد عبد الله بن مانوج تاب بعد الكبر، وسبب توبته أنه لقي شيخا من لماية وهو يرعى غنماله، فقال له الشيخ: اعلم أن غنما ترعاها اللحية هي خير النعم، وأن لحية تتبع الغنم هي شر اللحا، فوقعت التوبة في نفسه فتاب، وطلع حينئذ إلى المشايخ: وأبي مسور، وأبي صالح، وأبي موسى عيسى بن السمح، فمكث عندهم في الجزيرة ما شاء الله ثم رجع إلى أهله فلقي الشيخ المذكور فقال له: أعلم أن الجمال تبرك للحمل عليها ولكن تتفاضل في تبليغ الأحمال، فرجع إلى المشائخ، فمكث عندهم ما شاء الله، ثم رجع فلقي الشيخ المذكور، فقال الشيخ: إعلم أن الغدران كلها تأخذ الماء وإنما التفاضل فيما يبقى فيها الماء، فرجع ثالثة إلى المشائخ فمكث عندهم ما شاء الله يقرأ العلم، حتى تفقه، وهو أحد الفقهاء السبعة المشهورة نسبتهم إلى غار أجماج» (حيث ألفوا ديوان العزابة المشهور).
«ومما يذكر من قناعة، وقلة تعلقه بعلائق الدنيا ما ذكر أبو الربيع أن عبد الله بن مانوج لم يستسلف من أحد شيئا قط غير دينار واحد، استسلفه مرة، ورده بعينه إلى الذي استسلفه منه، وليس منه هذا استغناء، بل رضى بما قسم الله له، قال، ومع قلة ماله فإن ضيافته لا تزال حفيلة لا فضل عليها لضيافة ذوي اليسار».
«وسئل عن العبادة ما هي؟ فقال» النية والإخلاص، لا ما يتخيلون من الإجتهاد في القراءة وغيرها، إذا لم يصحب ذلك تقوى الله».
«قال أبو الربيع كان أبو محمد يقول بعد ما كبر أن من العلماء من يقول أن العالم إذا أحس بعقله ضعفا لعلة أو لكبر فلا يجوز له أن يفتي، وأنا آخذ بهذا القول وأترك الناس قبل أن يتركوني، وكان قد أخر الله في أجله، فلم يعرض نفسه لما يجر عليه نقصا» (*). (تجد هذه الفكرة مروية في «سير» أبي الربيع هذا في الباب السابع من الفصل الأول).

(*) هذه النقول من طبقات الدرجيني: ص 400, 402, 403.

﴿ وجملة أخرى من آداب العالم ﴾

وقال أيضا رحمه الله: من كانت شيمته في كل ما يسأل عنه، ولا يقف في مسألته، سلك واديا لا ينجو منه، وجلسنا عنده ذات يوم، فرغب قوم من جربة في السؤال وتحرصوا في الجواب، وكثر سؤالهم في عصبة، مما كان يمسك عن الجواب فيه، فكلما سألوه قال: الله أعلم؛ حتى قال من قال: أسأل عن غيره هذه المسائل، فقال (من) خلفهم، (بل) ليسألوا عما بدا لهم؛ إنما يضر هذا ويشق عليه من كان يجب أن لا يقف في شيء، وأن يكون مجيبا في كل ما يسأل عنه (1). فسأله رجل أيضا عن مسائل أراد جوابها، فكلما سأل عن مسألة قال (له الشيخ) الله أعلم، حتى أحس في كلامه ضيقاً، وتفكيراً في قلبه، فقال (الشيخ) إن المسألة ليس عندي فيها شيء، يا رجل: اتق الله، وأعلم أني لست في راحة، وأن هاتين الآيتين كالخناجر في العين: قوله تعالى:

(1) وإنما قالوا ذلك: تزكية للشيخ الذي ليس من ذلك الصنف المتعالم الذي يجب أن يدلي في كل شيء بما علم وما لم يعلم..

إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ

(البقرة: 159)

وقوله: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ (الأعراف: 33) (1)

وقيل عن الشيخ أبي محمد (عبد الله بن مانوج): من العلماء من يقول إذا أحس (2) الرجل نقصانا في عقله بكبر أو مرض أو علة فلا يفتي (في) العلم وقد أخذت أنا (أبو محمد) بذلك القول.

وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يأتي على الناس زمان يتغاير فيه العلماء كتغاير (من الغيرة) الضرائر، وذلك كله من حب الدنيا (3).

(1) إن ما أثبتناه ها هنا من بداية هذا الباب لم نجد له أصلا في النسخة (ب)
(2) حسب في (أ).
(3) كل يجب أن يرجع إليه، وأن تكون الكلمة له تصدرا وسمعة.

وقيل: من يدرس الكتب لم يعدم ما يقول ولا تكون فيه البركة (1).

وقيل أيضا: من يضع العلم في غير أهله، فيفتي به لمن لا يستحقه (كان) كمن يعلق اللؤلؤ للخنازير.

وقيل عن عيسى عليه السلام: لا تمسكوا العلم عن أهله فتظلموهم ولا تضعوه في غير أهله فتظلموه (2).

وقال أيضا: يا علماء السوء لا تكونوا كالسراج يضيء للناس فيحرق نفسه (3) وقال أيضا يوما لتلاميذه تحذيرا لهم: ما أرى من ينظر في هذه المسائل، يعني مسائل التوحيد، إلا كطبيب أعمى في ليلة مظلمة يداوي في كبد مريض بسكين حادة (4)، فكيف ينجو إلا أن ينجيه الله،

(1) لأن من شغله البت في كل مسألة، والخطبة في كل ناد، ينهمك على الكتب جمعا ولما بهدف أن لا يفوته ما يقول، وأنت خبير بالفرق بين ذا، وبين من يستقصي أقوال الكتب ويفحصها بهدف التحقيق فيما يقول.

(2) برغم وجامة ذلك، نقول على العالم أن يبث علمه في الناس، إقامة للحجة عليهم «معذرة إلى ربكم» و «لعلهم يتقون»، وتبرئة لذمته من الميثاق الذي أخذه الله من كل عالم «لتبيننه للناس».

(3) لأنه تلزمه تبعات وأوزار من خطأهم بقوله في العلم افتراء، فيبرأون، ويصلى هو نارا.

(4) وهو تصوير خطير لمن يعالج مسائل الكلام والعقيدة، وإنما كان خطر الخوض في باب مسائل التوحيد أشد خطورة من غيره، لأنها تمثل أصل الدين وأعمدة بنيانه، والإنزلاق فيها مدعاة للهلاك، هذا، ولعله منه (ليلة مظلمة)، إشارة إلى ما شاب مسائل التوحيد هذه من فلسفات الأقدمين، وثقافات دخيلة، كان معها «النظر في هذا أمر شديد».

والنظر في هذا أمر شديد، وتركه لا يصاب، نسأل الله النجاة لنا ولكم.

وكنا عنده ذات يوم فرآه رجل يسأله عن أخبار أهل الدعوة (1) وأحوالهم حتى ذكر عن بعضهم بعض مسائل غير مستقيمة كانت من جهالة وضعف، فقال: انظروا في هذا الباب واجتهدوا فيه، وأحسنوا نظركم فيه لئلا تعبدوا غير الله وأنتم لا تشعرون.

وقال أيضا: من تعلم علما، ولم يكن له أدب كرجل له ريت وليس له وعاء.

وقال الشيخ أبو يحيى رضي الله عنه: ما أرى من يعلم هؤلاء الطلبة أدبا إلا أفضل ممن يعلمهم علم الحلال والحرام، لأن حاجتهم إلى الأدب أعظم وأشد، لأن الناس تركوه (2) وجهلوا طريقته، نعوذ بالله من علم لا ينفع.

---

(1) أهل الدعوة مصطلح يطلقه الإباضيون على أنفسهم، ويقولون «أصحابنا» وكذا أهل الدعوة والإستقامة.

(2) لا شك أنه يقصد بالأدب ها هنا حسن الخلق، والفضيلة، والسيرة الطيبة، وليس الأدب الذي نعرفه اليوم من فن البيان والشعر وما إليهما.

وقد قيل: يأتي على الناس زمان يجتمعون في المساجد، ويتعبدون فيها باجتهاد وعزم، لم تطلع الشمس، ولم تغرب على شر منهم (1).

وقيل: إذا رأيتم العالم حريصا على الدنيا فاتهموه على دينكم، فينبغي للعالم أن يكون أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة وأحرصهم على فعل الخير، وأبعدهم (عن) الشر والسوء.

وقيل: استعينوا على حفظ العلم بترك المعاصي(2).

وقيل: ما الذي يزيل العلم من قلوب العلماء بعد إذ حفظوه ووعوه؟ قال كثرة الطمع والحوائج إلى الناس (3).

وعلى العالم أن يتخلق بأخلاق أهل زمانه (4) ويتأدب بأحسن الأدب.

---

(1) للذي أسلفناه من سوء الخلق، وما تلطخ به أولئك من باطن الإثم «الخطر الأكبر في حياة المسلمين» كفساد الطوايا وامتلائها بالأحقاد والضغائن والرياء (كما سيأتي) والذي لا يغني معه التعبد الظاهري بحال.

(2) ذلك أن «العلم نور، ونور الله لا يعطى لعاص».

(3) وكثرة الطمع والاحتياج إلى الناس يعني انصراف همة العالم إلى غير علمه، والإستمرار على ذلك يمحو ما تعلم وحفظ، لعدم تعهده له ومدارسته، ولو أنك أعطيت كلك للعلم ما منحك إلا بعضه.

(4) حتى يتجاوب معهم، ويحسن ضروب الحكمة في بث علمه، وإلا عاش منطويا على نفسه في برج عساج.

وقال أيضا: أخلاق السوء ضد الإسلام، ومنافرة له، ومفسدة للدين(1).

وقال أيضا: يطمع في قاطع الطريق أن يتوب، وينزع عن السوء، ويكون صالحا، ولا يطمع فيمن يدنس الإسلام، ويغيره (2)، وهذا قلما ينجبر.

وقال أيضا: ظلم الناس الإسلام بثلاثة: تركوه من غير عيب وجعلوا له عيوبا ولم تكن فيه، وادعوه ولم يكن فيهم (3).

وقال أيضا: من طمع في الإسلام أن يدركه ومعه أخلاق السوء، كمن طمع أن يجعل الماء في الشبكة، وكمن طمع أن يأخذ شاردة (4)، وليس معه

(1) حقا، ليس أشد مقتا بين الناس، وأدعى للإشمئزاز والتقزز من عالم يدعي التدين، متمسكا بمسوح وعادات، وبعضا من التقاليد كأشد ما يكون التمسك، يبلغ التعصب أحيانا، ثم هو يعيث في الأرض فسادا وتهتكا «يعجبك قوله.. ولكنه يهلك الحرث والنسل» ضاربا صفحا عن لب الإسلام الحقيقي، فهو على حد قولهم: «أد الفرض، وانقب الأرض».

(2) لأن من بلغ به الجرء على معصية الله ومحاربته أن يحرف العلم عن مواضعه ليشتري به ثمنا قليلا، ويتطاول على القول على الله غير الحق، قليلا ما يرجى خيره «وقل ما ينجبر»، وإنما قارن هذا بقاطع الطريق لتصوير شناعة اللعب أو التلاعب بالدين.

(3) للسبب ذاك، قالوا عن ذلك الافرنجي الذي أسلم قبل زيارته لبلاد الإسلام أنه حمد الله أن أسلم قبل رؤيته لحال المسلمين لتسميهم بالإسلام ادعاء وهو «لم يكن فيهم».

(4) شاردة: من الشرود: يقال شاة شاردة بمعنى هربت وضاعت.

السلاليق(1) يدورون بها، أو كمن ينظر بإحدى عينيه إلى السماء، وبأخرى إلى الأرض في حالة واحدة (وهذا مستحيل)، أو كمن يبسط يده إلى السماء أن يبلغها وهو في الأرض(2).

وقيل له: أخبرنا عن هذه الأخلاق الدنيئة، أمن الذنوب هي؟ (ف) قال: هي شر من الذنوب (3).

وقال: يخرج الإسلام من الرجل وهو يصلي ويصوم، ويفعل ما كان يفعل قبل ذلك من خصال البر، وهو لا يشعر؛ إذا كانت فيه ثلاثة: فرقة المسلمين بعد صحبتهم، وترك زيارتهم بعد أن كان يزورهم، وإذا استوت عنده حاجة أخيه المسلم مع غيره.

وقال سمعته (أبو زكرياء) ذات يوم يعظ بعض من كان عنده، مبتدئا في طلب العلم: احذروا على انفسكم، وخذوا عليها (4)، واطلبوا به (بالعلم) النجاة إلى ربكم، واحذروا دباغ السوء (5) أن يسبق إليكم.

---

(1) السلاليق: جمع سلوقي: نوع من الكلاب يستعمل للصيد.
(2) لذا قيل أيضا التخلي قبل التحلي: أي لابد من هجرة ما نهى الله عنه من منكر و«سوء خلق» كي ندرك الإسلام ونتحلى بحقيقته ولبه.
(3) لأن الذنوب تقترف لسوء أو جهالة، أما الخلق الدنيء فهو ينطوي على طبع، وتعود نفسي يصعب علاجه.
(4) بالجد والعزم. (5) سيقدم شرحها فيما يلي.

وقال لهم أيضا: احذروا الحرث بلا زريعة (1)، قيل له: فسر لنا هاتين الكلمتين، قال: نعم: مبتدىء راجع إلى الإسلام، إن سبق إليه في بدء رجوعه حسن حال وأخلاق حسنة، فهو على ما سبق إليه، (وإنما المرء على) ما ينشأ عنه إن خيراً فخير(2)، وإن شرا فشر.

وأما الحرث بلا زريعة، كالأعمال بلا نية، فليس لمن يحرث بلا زريعة إلا عناء ونصب، ولا يحصد قمحا ولا شعيرا، ولا ما ينتفع به(3)، ومن حرث خيرا حصده، من حرث شرا حصده، ولا يحصد زارع إلا ما زرع إن خيرا فخير، وإن شرا فشر(4)، ومن لم يحرث فلا يحصد شيئا، وكذلك العامل وعمله، إن لم تكن له نية في عمله، فلا أجر له، ومن لم يعمل شيئا، (فإنه) لا يجازى

(1) زريعة: الشيء المزروع، ويقصد هنا البذور جمع بذر.
(2) فهذا شرح لـ «دباغ السوء» الذي حذر طلبته عنه، والذي لا ينفع معه إسلام ولا تربية إن سبق إلى الإنسان (إلا نادرا). يشير بذلك إلى أثر التربية الأولية للناشيء في توجيه «شريط» حياته حين يشب إلى أن يشيخ، فمن نُشِّيءَ على الفضيلة والخير منذ نعومة أظفاره، نعم بالفضيلة وكان إسلامه تتويجا لا ستمامته وزكاته، والعكس صحيح «ومن شب على شيء شاب عليه».
(3) (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)، (الفرقان: 23) للسبب الذي بينه الشيخ.
(4) (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)، (الزلزلة: 8).

أحد من غير عمل، ومن عمل خيرا أجزى به، ومن عمل شرا أجزى به، لكل امرىء ما نوى، ولكل عامل ما عمل.

وقال أيضا: لا تدرك النجاة لأهل زماننا هذا إلا بإجتهاد أمثل وأعظم من إجتهاد (1) الأولين، لأنهم في زمان شديد غليط، ونوازله أشد وأعظم، وقلت فيه أسباب النجاة، وكثرت فيه أسباب الهلكة، زمان أدبر فيه الخير وأقبل فيه الشر، واندرس فيه العلم، وقل فيه الورع، وذهب فيه الخوف من قلوب الناس، وقست القلوب، وما جمدت العيون إلا وقست القلوب، وما قست القلوب، إلا وكثرت الذنوب فيه (2).

﴿ بأي شيء تحيى القلوب»؟ ﴾

وقال: سمع رجلا يبكي، ويبالغ في بكائه. فقال له: ما يبكيك؟ فقال له الرجل: قلب، كان لي فقدته، فقال

---

(1) من جهاد في (ب).

(2) تحليل نفسي علمي رائع يذكرنا بالمدرسة السلوكية في علم النفس والمدرسة الإرتباطية، والشرطية أيضا والتي تجعل سلوك الفرد إستجابة لمؤثر معين، فجمود العين (كأثر) يقابله إستجابة باطنية هي قساوة القلب وموته، والذي يسفر عن تلطخ الإنسان بوحل الذنوب.

في إثر كلامه: لا يبكي الباكي على مثل هذا إلا وفي قلبه حياة.

وقال أيضا: لا يبتلي الله عبدا بشيء شر عليه من قساوة قلبه، ولا يعطيه خيرا هو أعظم من حياة قلبه (1).

وقال أيضا: من أحيا ليله (2) أحيا الله قلبه، ومن أمات ليله أمات الله قلبه.

فقيل له: بأي شيء تحيى القلوب؟ قال: بكثرة الذكر والإجتهاد في العبادة، والإبتهال في الدعاء، والتضرع إلى الله آناء الليل والنهار، ومد اليد بما أمكن بالنفقة لله محتسبا، ومن ذلك قراءة القرآن عند نشاطه، ورد النظر في وعده ووعيده، ولزوم الصمت، و «الصلاة بالليل والناس نيام»، وإجتناب الخوض وترك ما لا يعني، والزهادة في الدنيا، والرغبة في الاخرة، وذكر الموت، وقصر الأمل، وذكر القبر، ووحشته وظلمته، وما بعده،

(1) «أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات، ليس بخارج منها». (الأنعام: 122).
(2) بالتبتل والدعاء والقيام..

هولا بعد هول، فمن رزقه الله هذا، وألهمه إياه لا يعدم حياة قلبه، ولا نشاطا في نفسه، ومن عدم هـذا، وخـلا منه عدم الخير كله.

وقال أيضا: إذا أراد الله بعبده أن يـأتيـه يـوم القيـامـة فقيرا من الأعمال، ابتلاه بكثرة النوم.

وقال أيضا: قلب اختلقته (1) الذنوب، كجلد احترقته النار لا يعالج، ولا يصلح.

(1) ذلك أن الإصرار على المعاصي، والتمادي فيها، يميت القلب ويرشيه، بما غشيه من نكب سوداء تكاثفت، فطبع عليه.

﴿ الفصل الثاني ﴾

كيف تضيع السنن ويموت الدين؟

وقال أيضا: من خرج منه الإسلام فلا يرجع إليه أبد (1).

وقال أيضا: يخرج الإسلام من الناس، وتبقى فيهم خلاقه، ثم تتبعه أخلاقه، ولا يكثر بطؤها (2) بعده (ثم) لا يكون الإسلام، وتعدم أخلاقه.

وقال أيضا: ذهاب الإسلام ليس كرحيل الظعينة (3) فيراه الناس حتى يتوارى عنهم، ولكن ذهابه، ذهاب سيرته، وأدبه، وخلاله: خلة بعد خلة، سيرة بعد سيرة، حتى يخرج منهم الإسلام وهم لا يشعرون (4).

---

(1) بسبب ما اجترح من سيآت، وتمادٍ في الكفران: ذلك (أن الذين كفروا وظلموا، لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا، إلا طريق جهنم)، (النساء: 168).

(2) جاء في النسختين بطيها، والصحيح ما أثبتناه.

(3) المرأة في الهودج (على الجمل).

(4) ولقد نبه النبي ﷺ إلى هذا التدرج في التسيب من عرى الدين فيما رواه البخاري عن ابن عباس: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا شبرا، وذراعا بذراع حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه.

وقال أيضا: ذهب الإسلام، ولم يبق منه إلا مقدار ما يبقى من الحياة في الشاة المذبوحة، بعد ذبحها، فتتحرك حركة فتقطع منها (الحياة).

وقال أيضا: إذا دخلنا في الصحيفة فنحن في السطر الأخير (1).

وقال أيضا: أهل الزمان الماضي إذا تداعوا إلى الخير قاموا فأحيوا الدين، وأهل زماننا إذا تداعوا واجتمعوا على أن يحيوه أماتوه (2).

وقال الشيخ (أبو زكرياء): ما أرى أكثر أهل هذا الزمان واجتماعهم وتعاونهم إلا على إماتة الدين.

وقال أيضا: من مات الدين على يديه، انتقم الله منه

---

(1) إشارة منه إلى أن فك عري الإسلام إذا شرع فيه استمر إلى نهايته حتى يأتي على سنن الدين كلها. . ولعل الشيخ لم يكن مبالغا في حكمه هذا، أو متشائما من مواقع الناس بدليل الواقع المشهود والمعيش الذي شهد بتسيب المسلمين (منذ خير القرون) من أهداب الدين. .

(2) نعم، قد تعجبك اجتماعاتهم وكثرتها وشعارات الدعوة إلى وحدة المسلمين والنهضة بالإسلام، وعقد مؤتمرات وندوات هنا وهناك، لكن ما أتت بكثير خير يذكر، ولربما أماتوا إسلامهم من حيث تداعيهم لإقامته بسبب باطن الإثم، وما ران على القلوب من شهوات، وابتغاء حظوظ الدنيا، وأماني النفس، لمزيد من التفصيل راجع في هذا الباب كتاب «باطن الإثم: الخطر الأكبر في حياة المسلمين»، للدكتور سعيد رمضان البوطي.

ما عدم من الدين، من بدء الدنيا إلى انقضائها، واشتركت (. . .) أوزاره مع قتلة الأنبياء، والعلماء، والعباد الصالحين (1).

وقال أيضا: العلماء كالخيل، إذا لم تكن فيهم الخشية تردهم (2) فأي شيء يردهم؟ وهذا في العلماء وكيف (ب) غيرهم؟

﴿ الناس وآخر الزمان ﴾

وقال أيضا: إنما ينبغي للمؤمن أن يوجد في ثلاثة مواطن: إما مسجد، يذكر الله فيه، أو يعمل خيرا، أو يسمعه، أو يتعلم الخير، أو يأمر بالخير أو يعلمه أو في ضيعنه ساعيا لمعاشه، أو في قعر بيته هاربا مما لا يعنيه، مشتغلا بما يعنيه.

وقال أيضا، ما أرى حياة من أحياه الله في هذا الزمان لشيء يصلح(3).

---

(1) ترهيبا وتهديدا منه، وقد قيل كذلك «ويل لمن ماتت على يده السنن»، فكأنه كان سببا لقطع الدين حين ضاع من يديه دون أن ينتصر لدين الله عز وجل.

(2) عن الأمراض التي تحدثنا عنها.

(3) وقد يصلح لكثير، برغم الفتن والهوالك، «ولا تزال طائفة، وروي لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم» (رواه البخاري).

وقيل عن الشيخ: إنه قال: لا يؤخر الله إلى آخر الزمان إلا شر الناس (1).

وقيل عن جابر بن زيد (2) رضي الله عنه: لو أراد الله بنا خيرا لجعلنا في زمان الخير، يعني زمان الوحي، وقد أدرك (هو) من أدرك الوحي، وأخذ عن أصحاب النبي

---

(1) ولأجر المستمسك بالحق العاض عليه بالنواجد، في ذلكم الزمان أيضا أجر سبعين من الصحابة والسابقين.

(2) هو جابر بن زيد، الأزدي ابو الشعثاء، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر (أي سنة 21 هـ) ومات سنة 96 هـ، في رواية الشماخي، وفي رواية أخرى سنة 93 هـ، تابعي من أهل البصرة، وأصله من عمان، وصفه الشماخي بأنه: «بحر العلم وسراج الدين أصل المذهب وأسه.. صاحب ابن عباس رضي الله عنه، وكان أشهر من صحبه وقرأ عليه»، وينقل الدرجيني عن اياس بن معاوية قوله: «لقد رأيت البصرة، وما بها مفت غير جابر بن زيد» ويصنفه الدرجيني ضمن علماء الطبقة الثانية (50-100هـ)

وفي حاشية الجامع الصحيح، أنه لما مات جابر، وبلغ خبر وفاته أنس بن مالك، قال: «مات أحكم من على ظهر الأرض، وفيه أن جابرا مات في سنة 93هـ، وذكر صاحب تذكرة الحفاظ، قول عمرو بن دينار: «ما رأيت احدا أعلم بالفتيا من جابر بن زيد، وكذلك روي عن ابن عباس قوله: «تسألوني عن شيء وفيكم جابر بن زيد».

وقد ذكر صاحب التذكرة أن جابرا توفي في سنة 93هـ، ولكنه أورد أيضا قولا للواقدي ولإبن سعد بأنه مات في سنة 103 هـ»، راجع سير جابر في حاشية الجامع الصحيح على مسند الإمام الربيع بن حبيب للشيخ عبد الله بن حميد السالمي (ص 7-8)، طبقات الدرجيني (2/205-241)، سير الشماخي (ص 71-72). (هذه الترجمة تجدها في كتاب سير الأئمة وأخبارهم من تعليق للمحقق، ص: 97)، م.س.

ﷺ العلم والفقه، والسنن، والأدب، فكيف بمن (هو) في زماننا هذا؟ (1).

وقال أيضا: إذا دخلت خمسمائة سنة، فمن كانت له الأجنحة فليطر، ومن كانت له الأظفار فليحفر، من يربي الجرو خير ممن يربي الصبي (2).

وقال أيضا عن الشيخ: ثلاثمائة فالإسلام عاد في الناس وأربعمائة (فهو) نفاق، وخمسمائة (فهو) شرك (3).

وقال أيضا: لا تقوم الساعة حتى يكون الناس على دين أبي جهل (4).

---

(1) لقول النبيء ﷺ «خيركم قرني ثم الذين يلونهم» (رواه الترميذي).

(2) ينبغي علينا فهم هذه الأقوال في مناخها الطبيعي والصحيح، من اشتداد الفتن وتعاقبها كقطع من الليل المظلم (والتي تلي خير القرون) يصير فيها الحليم حيرانا، كما شهد التاريخ بوقائعه الجسام، لعل أخطرها تردي الخلافة إلى ملك عضود..

هذا هو الإطار الصحيح والسليم الذي توضع فيه أمثال هذه الأقوال والروايات وإلا فإن «من قال هلك الناس فهو أهلكهم» (رواه مسلم).

(3) لعله يشير إلى حديث «خير القرون» المذكور..

(4) أي لا تقوم إلا على شرار الخلق كما ورد.

وقال أيضا: من كان يحضر مجالس الذكر، حرمت عليه مجالس الدنيا كلها، فلا ينبغي للرجل أن يكون مثل الذباب، بين العطارين، وبين الجزارين، مرة يكون على الرياح الطيبة، ومرة يقع على الفرث والدم والنتن، هذا مثال لمن يحضر جماعة الخير، ثم يحضر مجالس الشر، مرة في الخير، ومرة في الشر.

قال أيضا: من يخلط الخير والشر كمن يطحن للريح (1).

(1) لأن ما يجمعه من حسنات في مجالس ذكر وخير، يحبطها بحضور مجالس شر وسوء، وإذن لصار ممن «خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا» لا تدري ما الله فاعل به.

﴿ الفصل الثالث ﴾

باب في التوبة من الذنوب

ويموت الدين؟ وقال أيضا: من كانت عنده الفضائل أفضل من ترك الذنوب فأعلم أنه مخدوع (1).

وقال أيضا: ذنوب يعملها العبد بعد رجوعه إلى الإسلام كثوب كان تغييره من الماء، فلا شيء يطهره وينقيه، وأما تغيير أو وسخ أصابه من غير الماء (فإن) الماء ينقيه ويطهره، وكذلك الذنوب التي عملها على جهالة قبل رجوعه إلى الإسلام، إذا تاب منها، فرجع إلى الإسلام، وداوى نفسه وأصلحها بفراقها (الذنوب)، ويذهب عنها (2) فيكون خالصا إن شاء الله، وأما فعله (3) بعد رجوعه إلى الإسلام، وبصره، وكونه مع أهل الإسلام قلما ينجو ما يفارقها (4)، إلا أن يشاء الله.

---

(1) ذلك أن الفضيلة تفقد قيمتها وفعاليتها في عبد يظل متلطخاً بوحل الذنوب ودرن المعاصي، وخدع من حيث استهلاك سيئاته لثواب فضائله.

(2) أي أقلع عنها.

(3) للذنوب.

(4) يشير بذلك إلى سهولة تصفية ذنوب الإنسان بسبب الإسلام الذي يجب ما قبله، أو بالرجوع إليه (الإسلام) بالتوبة النصوح، في حين أن التلبس بالمعاصي مع لباس التقوى والإيمان يصعب مداواته إذ قد ينقلب نفاقاً كأن يقول المرء ما لا يفعل، أو يأمر الناس بالبر وينسى نفسه.. والله أعلم.

وقال أيضا: التوبة دواء الذنوب إذا أصابها بنية صافية (1) فارقته وفارقها.

وقال أيضا: سرعة اللسان بالإستغفار، والتمادي على الذنوب، توبة الكذابين.

وقال: من يتب ثم يرجع إلى ما تاب منه كالمستهزىء بربه (2).

وقال أيضا: لو علم الإنسان ما يستغفر منه، لجف لسانه في الحنك (3).

باب في التحذير من اللغو وآفات اللسان

وقيل عنه أيضا: أنه سار عنه رجل تائب ممن كان عنده، فشيعه (الشيخ أبو زكرياء) حتى توارى عن الناس، فجعل يوصيه، ويذكره، ويحذره، فقال: اعلم

---

(1) أي عمل سوءا بجهالة.

(2) وقد استهزأ الله منه هو أيضاً حين توعده: (وليست التوبة للذين يعملون السيئات، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن، ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما) «النساء: 18».

(3) لخطر الذنوب، وهتك حرمات الله، فلو كشف للإنسان خطر ما اقترفه تفريطاً في جنب الله إذن «لجف لسانه في الحنك».

ياأخي انما ينبغي للرجل إذا رجع إلى أهله من الجماعة، أن يكون حافظا لنفسه، ولسنن المسلمين، وسيرهم، ويكون مصلاه معلوما، ومستحمه، ومستغله (1) حافظا لختمته (2) في أوقاتها، ولصلواته في أوقاتها، هاربا من أهل الدنيا ومجالستهم، ومحادثتهم، والخوض معهم، واحذر أن تكون كرجل يدعي الإسلام، وهو معهم (أهل الدنيا) في أمورهم وحوائجهم، وحوضهم، (قد يكون) معهم في جماعتهم، يخوضون فيما لا يعني، وما يقل فيه النفع، حتى إذا حضرت الصلاة ومر أول وقتها، تنحى عنهم إلى موضع قريب منهم، فضرب بيده إلى الأرض، فتيمم لصلاته، فنقرها، ثم رجع إليهم مسرعا راغبا في حديثهم وخوضهم (3).

---

(1) احتياط لتمام الطهارة، وحرمة الصلاة، وموضعها.

(2) أورده الخاصة التي يبرمجها بالليل أو النهار. كتلاوة جزء من كتاب الله عز وجل، وشهود الختمات الجماعية (ختمة القرآن)، سيرة معهودة لدى الإباضية الى الان.

(3) (فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراءون).، (الماعون : 5 - 6).

وقال الشيخ أبو محمد ويسلان (1): إذا سرنا من بلدنا عن سليمان بن ماطوس (2) وقلنا له: أوصنا. قال: إياكم

(1) هو أبو محمد وايسلان بن يعقوب المزاتي، من علماء الطبقة الثامنة (350 - 400 هـ)، لم ينتفع بشبابه فضاعا في «لا شيء» غير أنه «بذل الرشاد بعد الغي، فسعى وجد، وجد واجتهد، حتى فتح الله عليه في مدة يسيرة بما نال غيره في الأعوام الكبيرة، فكان بالمجاهدة مذكوراً، وبالعلم والورع مشهوراً».

لحق بتلاميذ القرآن ليدرس على الشيخ أبي القاسم يزيد بن مخلد (راجع أخباره في الطبقات ص 340 و 341) فأجهده ذلك، وشقه أول أمره لكبره، وعجزه، لكنه ثابر واجتهد، حتى حفظ القرآن، ثم تعلم علم الكلام، وحصل الأصول على شيخه المذكور، ثم ارتحل الى جبل نفوسة لتعلم الفروع «فجعل يقرأ العلم، حتى حفظ في الفقه كتباً كثيرة، وكان في أثناء هذه المدة إذا وصله كتاب من تلقاء أهله رمى به في الكوة لا يقرأه، حتى قضى وطره من علم الفروع، وعقد النية على الرجوع إلى أهله، فقرأ الكتب فوجد في الأول التعزية بأمه ووجد في كل كتاب ما لو اطلع عليه لكان شاغلاً (له) عما قصد إليه من الخير.

ولشدة مثابرته وجده في طلب العلم كان يقرأ في كل زمان، صيفاً وشتاءً، فإذا رآه أهله «يقرأ في الشتاء قالوا له: يبتل كتابك ببلل أندية الشتاء، ويقول لهم: سيأتي الصيف ويجفف، فإن كان الصيف قالوا: يحترق كتابك، ويتقبض بحر الشمس، ويقول لهم: سيأتي الشتاء وينبسط» ـ وكان رحمه الله ليناً صابراً رحب الصدر حليماً.

النقول التي بين قوسين هي من طبقات الدرجيني (ص 370 و 371).

(2) سليمان بن ماطوس: من علماء الطبقة السابعة (300 - 350 هـ). له تآليف في علوم الدين، وجلس للتدريس والتربية، وسار إليه تلاميذه ليقرأوا عليه، منهم أبو صالح اليراسني (راجع ترجمته في طبقات الدرجيني ص 353)، فأقاموا يقرأون عليه ما شاء الله، ثم انتقلوا الى موضع بإفريقية يقال له «سلام عليك» فأقاموا به يدرسون الكتب زماناً، ثم انهم رجعوا إلى ابن ماطوس ليعرضوا عليه ما قرأوه في تلك المدة فلقوا بكر بن أبي بكر بنفزاوة وصحبهم، فساروا إلى وقت صلاة الظهر، ومعهم رجل فقال لهم ما الذي أصلي، أقصراً أم تماماً؟ فقالوا كلهم: صل صلاة المقيم حتى تجاوز ستة أميال، إلا بكر بن أبي بكر، فقال له: صلاة المسافر، إذا نويت خروج ستة أميال، ثم مروا بامرأة تغسل صوفاً نزع من شاه ميتة فقالوا لها: لا يطهر صوف الميتة حتى يترب في سبعة أمكنة بسبع أتربة. وسبع قضبان، ثم يغسل بعد هذا، فقال لها بكر: أغسلي صوفك كما تغسلين غيره من الصوف، ولا يلزمك مما قالوا شيء، وقالوا في رجل تيمم ويده منجوسة، إن اليد تطهر وإن التراب ينجس، فقالوا له، فأين ذهبت نجاسة اليد؟ قال ذهبت بين الضربات، فساروا حتى وصلوا ابن ماطوس فأعلموه بالمسائل الثلاث، وبجواب بكر، فقال لهم: الفرسطائي عالم، ثم أخذوا في تصحيح ما قرأوه ونظروه على ابن ماطوس فصححوه في ستة أشهر، ورجعوا إلى أهاليهم. وذكر أن ابن ماطوس قال لبعض من يرد عليه من نواحي بلادهم، بلغنا عن رجال منكم أنهم يأخذون الصدقات ويردون منها على من أخذوها منهم، فزجرهم فإنه مما لا يرضي الله تعالى(*).

هذا.. ولم يتيسر لي استقصاء واف لأخبار ابن ماطوس لكن هذه النقول قد ترسم في ذهن القارىء صورة عن الشيخ ابن ماطوس في مدى فقهه وعلو كعبه في العلم والفتوى.

(*) هذه النقول من الطبقات للدرجيني ص 350 و 351.

وأهل الدنيا فاحذروهم، وإياكم وكثرة الكلام فيما لا يعني، وقال: من قام من مجلس أهل الدنيا، وهم يخوضون فيه فقام عنهم محتسبا، وهاربا من خوضهم وحديثهم، ووضع جنبه راقدا، فلا يقوم من منامه إلا وقد غفر الله له ذنوبه كيوم ولدته أمه (1).

باب في الحث على العزلة إذا فسد الناس

وقال أيضا: في الهروب عن الناس والعزلة عنهم، وترك أمورهم وحوائجهم، فقال: اتقوا الناس، واحذروهم، فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا دبروه (2) ولا جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا حرفوه وأفسدوه.

وقال غيره عمن مضى من الصالحين: يأتي زمان لا يصلح للمؤمنين دينهم إلا إن هربوا في الشواهق (3) كالثعلب (4).

---

(1) تحريضاً على اجتناب مجالس اللغو، وتضييع الوقت الثمين هدراً، وهل الوقت إلا عمر الإنسان: «والذين هم عن اللغو معرضون» (المؤمنون ـ 3) (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) (القصص ـ 55).

(2) دبروه: أي أصابته دبرة فصار معقوراً، إشارة إلى شرهم.

(3) أعالي الجبال.

(4) ولأن المستمسك بدينه كالمتمسك بجمرة، غريب بين الناس لضعف الدين وذهاب سنن الإسلام، فلا بيئة صالحة، ولا وسط اجتماعي سليم يعين على إقامته.

وقال أيضا: المؤمن في آخر الزمان كابن لبون (1) لا ظهر فيركب ولا ضرع فيحلب (2).

وقيل عن رجل من الصحابة: أنه رأى رجلا ومعه طير غريب قلت معرفة الناس به، فسأله، فقال له: من أين صدت هذا الطير؟ فقال له: من جبل كذا وكذا، وهذا الجبل بعيد (عن) الناس، فقال له: يا ليتني كنت حيث صدت هذا الطير، هاربا بنفسي من الناس. هذا في زمان الصحابة وأهل الخير، فكيف بزماننا هذا الذي فسد فيه الناس، ومالوا فيه إلى الدنيا، وركنوا إليها، ونسوا الآخرة وتركوها، وأعمالها، إلا من شاء الله.

وقيل أيضا: من أراد أن يكون حكيما، فلا يجالس عشيرته (3).

---

(1) ابن لبون: ولد الناقة الداخل في عامه الثالث.

(2) وذلك لخلوه من الخير، إلا من رحم الله، على أنه ينبغي التوكيد جيداً إلى أن الشيخ يقصد بهذه المبالغة استفحال فساد حال المسلمين، واستشراء الفتن فيهم.، وإلا فالمؤمن لا يزال فيه الخير، ولن يزال، وليتنبه بعض الناس حين يبالغون في ذم الزمان وأهله إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «من قال هلك الناس فهو أهلكهم» (رواه مسلم).

(3) لأن ذاك أدعى للتعصب لها والإنتصار لهواها وتقاليدها (على حساب الحق) حمية ومفاخرة كما سترى في الباب التاسع المخصص لهذا الشأن، أما مجالسة العشيرة لتدبير شؤون أبنائها تعاونا على البر وقياما بشؤون المسلمين فليس مقصوداً أبداً من كلام الشيخ، فليحذر الذين يتبنون هذه الأقاويل من دون دراية لتبرير قرارهم من ذويهم والانطواء على ذواتهم لأن «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» (رواه الحاكم عن ابن مسعود، بلفظ مختلف).

باب في اختيار الصاحب الصالح

وقال يوما لرجل يوصيه: اتخذ لنفسك مرآة تنظر فيها وجهك لئلا يدنس عليك وأنت لا تشعر وهو الصاحب، والأخ الحبيب الودود الشفوق (1)، فقيل له: من الذي ينبغي لنا أن نتخذه خليلا؟ قال: الذي يكفيك مؤونة نفسه (2) ويعينك على نفسك، والذي يعظك برويته (3) قبل أن يعظك بكلامه، والذي يرى لنفسك ما يرى لنفسه، الراغب في قربك، الشحيح على فراقك، الوافر عقله، الهارب بدينه، الشفوق على لحمه ودمه (4)، فهذا أقل ما يوجد، وهو أعز من الكبريت الأحمر (لندرته).

وقال أيضا: لا خير ولا نجاة إلا مع أهل الخير، ولا يفلح من لا يرى مفلحا (5).

وقيل: الصاحب الصالح يقرب صاحبه إلى الجنة، ويبعده عن النار، وصاحب السوء يقرب صاحبه إلى النار، ويبعده عن الجنة (6).

---

(1) جاء في النسختين «الواد الشفيق».
(2) لا يكثر عليك بتكاليفه وجاء في الحديث «ولا تسأل الناس شيئا».
(3) الروية لغة النظر والتفكر في الأمور، ولعله يعني بها ها هنا السيرة والسلوك.
(4) من النار غدا.
(5) يتشبه، ويتأسى بسلوكه الفاضل.
(6) والقرين بالقرين يقتدي.

وقيل من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم (1).

وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من حمده ثلاثة، فلا تشك في صلاحه، من حمدته قرابته، وجاره، وصاحبه في السفر.

وقيل: ثلاثة لو حلفت عليهن لم أحنث: من ستر الله عليه ذنوبه في الدنيا يسترها (له) في الآخرة، وان صاحب الرجل في الدنيا هو صاحبه في الآخرة (2)، وأن الشهادة على رجل في الدنيا هي الشهادة (له أو) عليه في الآخرة (3).

وقال أيضا: يأتي على الناس زمان لا تنال فيه المعيشة إلا بمعصية الله (4).

---

(1) في دينه وعرضه، وقمين بالمؤمن أن يبتعد عن مواطن الشبهات.
(2) لأن من أحب قوما حشر معهم.
(3) (ليكون الرسول عليكم شهيدا، وتكونوا شهداء على الناس)، (الحج: 78).
(4) لعدم مراعاة حدود الله في شؤون المعاش، وتحري الحلال في المكسب والمتاجرة، وسائر أمور الإقتصاد، وتفشي ظاهرة الربا وقبولها كضرورة إقتصادية حديثا في حياة المسلمين دليل على ما ذهب إليه الشيخ.

وروي عن أبي مسور (1) رحمه الله أنه قال: أهل آخر الزمان يعيشون بالحرام المجهول (2)، ولا يؤاخذون، ولا تقبل دعواتهم.

---

(1) هو أبو مسور يسجا بن يوجين اليهراسيني، ذو باع في العلم كبير، ومصلح إجتماعي شهير، يقول عنه علي يحيى معمر: «كان رحمه الله، غزير المادة، لطيف المعشر، سهل الخلق، لين العريكة، حيا متسامحا إلى أبعد حدود الحياة والتسامح، وكان ذكيا، ناقد البصيرة، وكان مع ذلك جم التواضع حليما، يضاف إلى ذلك سعة في المال، وسخاء في النفس، وإنطلاقا في اليد، وكرم مطبوع، وهذه الصفات جميعها كونت له شخصية عظيمة محبوبة، وهيأت له عند الإباضية وغير الإباضية منزلة سامية، لا يصلها إلا النادر من الناس، فكان ينظر إليه كما ينظر إلى الزعيم، أو الحاكم المحبوب ينتظر الناس أمره ليلبوه عن رضى ومحبة، ولكنه كان أشرف من أن يستغل من محبة الناس، وأنزه من أن يحرف عن الحق، وأعدل من أن يميل مع الرغبات، وأحكم من أن لا يقدر عواقب الأمور ونتائجها».
نشأ في قبيلة بني يهراسن، ثم التحق بمدرسة أبي معروف (ترجم له الدرجيني في «الطبقات» راجع ص: 325 وما بعدها)، الكبيرة في شروس بجبل نفوسة، ودرس بها ثمانية أعوام فاق بعضا من أساتذته في العلم، وتحمل في سبيل ذلك شظف العيش لقلة ذات يده، فكثيرا ما كان «ينقع الشعير فيشرب ماءه، في وجبة، ويطبخه في الوجبة الأخرى، لا يتألق ولا يحتفل بالأكل، ولا يشغل وقته بالترافه من الأمور».
إلا أن الله أفاض عليه من رزقه وفضله حين ذهب إلى جربة، بعد انتهاء دراسته، ووضع ثروته تحت تصرف أمته، ينفق في سبيل التربية والتعليم، وأوجه الخير، فكان في حالته الأولى صابرا، وكان في حال السعة والفضل شاكرا لأنعم ربه سخيا رحمة الله عليه.
(*) هذه النقول من كتاب الإباضية في موكب التاريخ: (الإباضية في تونس) مطبعة سميا، بيروت. ص 82. ط. 1.

(2) للذي أشرنا إليه آنفا من تفشي الحرام في حياتنا الإقتصادية كضرورة طاغية ولازمة كأنه عذر مع أهلها (الذين لا حول لهم) فشملهم لطف الله وعفوه، غير أن الدعاء لا يقبل ممن غدي بالحرام، فالأشعث الأغبر، الحرام ملبسه ومطعمه ومشربه، أنى يستجاب له ولو دعا ما دعا..

وقال أيضا: يأتي على الناس زمان يكون الناس فيه ذئاب، فمن كان ذئبا أكل مع الذئاب ومن لم يكن ذئبا أكلته الذئاباً (1) والخير فيمن أكلته الذئاب (2).

وقيل يأتي زمان يمسي الرجل فيه مسلما ويصبح كافرا ويصبح مسلما، ويمسي كافرا (3)، زمان تتتابع فيه الفتنة يتبع بضعها بعضا، كمثل الليل المظلم، فلا ينجو منها إلا من عصمه الله، زمان تطلب فيه النجاة فلا تصاب، زمان يتحاسد الناس فيه، فيتمنى الرجل الموت لنفسه، ويكره الحياة، لا لرضى عن نفسه، ولا لكثرة زاد قدمه، (لكن) إلا لما يراه من فساد الزمان، وكثرة الأهوال، وقلة النجاة، (زمان) أحرى ألا ينجو فيه العالم العامل بعمله، فكيف (بـ) من دونه من الناس.

---

(1) ومن الطريف أن يلتقي أبو مسور برأيه هذا مع رأي (هوبز)، الفليسوف السياسي الإنجليزي المشهور حديثا والذي قال: «إن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، ما دام كل إنسان عدو كل إنسان آخر، لأنه لا ينشد إلا مصلحته الخاصة!».

(2) تنصلا من تبعات جسام تلحق الآكلين غدا يوم يبعثون؛ تصاصا وعقابا، وإنصافا.

(3) شطر من حديث يقول فيه عليه الصلاة والسلام «إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا، ويمسي كافرا، القاعد فيها خير من القائم، والماشي فيها خير من الساعي..» رواه أبو داود عن أبي موسى الأشعري.

باب في الإخلاص

وسئل أيضا: كيف يكون عمل العبد خالصا لربه صحيح النية؟ قال: إذا كان الناس عنده مع الحجر والحطب سواء، لا يعمل بهم، ولا يترك بهم، فإذا كان هكذا صحت أعماله وانتفع بها.

وسئل أيضا عن الرياء كيف هو؟ وأي شيء هو؟ قال: الرياء أن يترك العمل بالناس، وأما العمل بهم فهو شرك (1).

وقيل عن النبيء ﷺ قال: «اتقوا الرياء فإنه الشرك الأصغر» (2).

وقال أيضا (الشيخ): يكون الرجل، في قعر بيته، قد غلقت عليه الأبواب، واقف في صلاته في جوف الليل، ليس معه غيره، وهو مراء بصلاته، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحب في نفسه أن يظهر ذلك عند الناس، ويطلع عليه.

---

(1) أي يهم العبد بعمل فيخطر بباله مراقبة الناس له، فيكف عنه مخافة الرياء، فهذا نفسه فخ ومكيدة، ومن تلبيس ابليس، والأخطر أن تراني الناس بعملك «فهو شرك».

(2) روى ابن ماجة عن عمر بن الخطاب قوله عليه الصلاة والسلام: «إن يسير الرياء شرك..» (الحديث.

وقال أيضا: يكون الرجل بمطلع الشمس، وتكون الفتنة في مغربها، وهو في بيته (أي الرجل) على سريره راقد، ولم يحضر (الفتنة) بنفسه ولا بماله، وسيفه يقطر دما من تلك الفتنة (1).

وقيل له: وكيف ذلك؟ قال: إذا مال بقلبه إلى إحدى الطائفتين.

وقال أيضا: وقعت الفتنة بين قبيلتين من قبائل نفوسة الجبل، وكان فيها رجلان ممن يدعي الإسلام، أحدهما من قبيلة، والآخر من قبيلة أخرى، فهربا بنفسهما من الفتنة إلى الجبل، فكانا بموضع واحد، فزحفت إحدى الطائفتين إلى الأخرى، فقال أحدهما للآخر: أي شيء تحب، أن تهزمهم قبيلتك أم قبيلتي؟ فقال له: أن يهزمهم أهل قبيلتك أحب إلي، لأن أهل قبيلتك إن هزموهم يستبقون فيهم (2)، وأهل قبيلتي إن هزموهم لا يستبقون

(1) يذكر الشيخ علي يحيى معمر في ترجمته لأبي عمار عبد الكافي، كتابه «الإباضية في الجزائر» الجزء الأول (المطبعة العربية)، ص 217، يذكر أن أبا عمار يقول: «إذا وقعت فتنة بين فتيين فالأحب إليّ أن يصطلحوا، فإن لم يفعلوا فالأحب إليّ أن لا تتغلب فئة، فإن من أحب أن تغلب إحداهما الأخرى، فقد دخل الفتنة، ولزمه ما لزم أهل تلك الفتنة، وكأن سيفه يقطر دما، وقال: «السلامة عندي أن يكونوا من البراءة سواء، ولا يرجع قلبي إلى إحدى الطائفتين، فإنه متى رجع أثم».

(2) لعدلهم.

فيهم (1)، فقال الآخر لصحابه: أي شيء تحب أنت؟ فقال لا أبالي لو أنهم صاروا مثل مطحنة التراب، يسحقون حتى يذهبوا كلهم، فقال له صاحبه: أنت الذي تبقى ها هنا وأما أنا فلا. فهرب بنفسه إلى بلاد غير تلك البلاد (2).

وقال أيضا: ترى الرجل يصلي ويصوم، ويدعي الورع والخشوع فإذا ذكرت قبيلته حامى عليها، ومال بقلبه (إليها)، نعوذ بالله من الحمية والعصبية، والرياء، وحب المحمدة والثناء.

وقال أيضا: الاتقاء: (3) على العمل بعد العمل أشد من العمل (4).

---

(1) لجورهم وطغيانهم.

(2) هرب منه لأنه مفتون برغم بعده عن ساحة الوغى، حين ابتغى موات الطائفتين وسحق بعضهم بعضا، وهو موقف محايد، فيه عدم المبالاة والإنشغال بأمر المسلمين، لذا فهروب صاحبه منه لتبنيه الرأي ذا، كان إيثارا للنجاة من هذا المفتون، فنستفيد أنه أحرى بالمؤمن حين يفتتن الناس أن يكون إيجابيا وفعالا بسعيه لإصلاح ذات بين المسلمين، وإن أعياه ذلك، «فعليه نفسه، لا يضره من ضل» شريطة أن لا ينتصر إلا بالحق، وينبذ دعاوي الجاهلية، وقد سن للمسلم أن يدعو «اللهم اقبضني إليك غير مفتون» لأن «الفتنة أشد من القتل».

(3) وقايته من الإحباط.

(4) لأن الإنسان كثيرا ما يحدث عن نفسه ومنجزاته، تباهيا، وتصيدا للشهرة، وإبتغاء السمعة والمحمدة لدى الناس، فينهار ثواب عمله، بعد أن داخلته شوائب الرياء، فليحذر من هذا إذ هو «أشد من العمل».

وقال أيضا: من يزعم أنه من أهل الجنة فلا خير فيه (1).

وقال أيضا: لا يفلح من لا يعرف قدره، ولن يهلك من عرف (2) قدره.

وقال أيضا: الوقيعة في الناس من علامة الشقاوة.

وقال أيضا: إذا أراد الله بعبده خيرا بصره عيوبه، وعرفه قدره، وجعل خطاياه وذنوبه بين عينيه (3)، ومن أراد به شرا أعماه عن عيوبه، وأجهله قدره، وأنساه ذنوبه، ورد نظره في عيوب غيره (4).

باب في الحذر من فتنة النساء

وكان الشيخ رضي الله عنه نهانا عن محادثة النساء، ومخالطتهن والخلوة بهن.

---

(1) لأن من شيم أهل الإيمان والإخلاص أنهم (يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون)، (المؤمنون: 60)، أي برغم أعمالهم وتقاهم يخافون أن لا يتقبل منهم لأنهم «لا يزكون أنفسهم».

(2) لأن ما به نعمة وتوفيق ليس من محض نفسه، «لولا أن تداركه نعمة من ربه».

(3) ليشتغل بإصلاحها فيتزكى.

(4) وأنساه ذلك كله نفسه: (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون، (الحشر: 19).

وقيل: لا يخلو الرجل بإمرأة وحده إلا كان الشيطان ثالثهما (1).

وقال: كل إرب منها يدعو كل إرب منه (2)، ومن أراد السلامة لدينه ونفسه فليهرب منهن، ويجتنب أمورهن.

وقيل عن الشيخ أبي مسور (تقدمت ترجمته) رضي الله عنه: إذا رأيت الرجل يكثر مخالطة النساء ومحادثتهن، اغسل منه يدك (3) وايأس منه، ولا يكون ذلك إلا من لسة العقل (4)، وسوء النظر، وقلة الورع، فمن أراد السلامة لنفسه ودينه فليهرب منهن.

وقيل أيضا عن رجل من أهل الخير، أدركتني مضرة نظرة المرأة على سنة (5).

---

(1) رواه الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(2) لعله يعني بها أن كلامن الجنسين يشتهي الاخر ويطلبه؛ بحيث أن عضو كل منهما يشتهي عضو الاخر.
(3) كناية على الإجتناب والإبتعاد.
(4) وضاعته.
(5) بمعنى ذاق وبال النظرة المحرمة غذابا، وذل سنة كاملة، جزاء بما اقترفت عينه من نظر محرم.

وقال: إحذر من جميع ما يسرك، وما يهويه قلبك، ولا تأمن غدا أن يضرك.

وقال أيضا: النظرة من بدء الزنى، ولا يزني فرجك ما أغضضت بصرك (1).

وقال أيضا: كل كلام بغير ذكر الله لغو، وكل نظرة بغير فكرة فهي سهو.

وقال أيضا: كثرة الالتفات (2) من علامة المنافق.

وقال أيضا: الضحك من غير عجب، والالتفات من غير حاجة من علامات الحماقة.

وقال أيضا: أكثر ما يؤذي العبد لسانه، وعيناه، فمن رزقه الله حفظ لسانه، وغض بصره، فقد منّ الله عليه بعظيم من الخير.

باب في الخلوة بالنفس لوعظها ومحاسبتها

وقال أيضا: من يعظ المنافق كمثل رجل يعظ الميت (3).

---

(1) (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون)، (النور: 30).

(2) تتبعا لعورات الناس وكشف الستر عنهم ولا يفعل ذلك كريم.

(3) لا تؤثر فيه الموعظة لموت قلبه (سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون)، (البقرة: 6)

وقيل: الموعظة لا تعمل إلا في قلب فيه حياة، ولا تدخل قلبا ميتا.

وقيل أيضا: من وعظ رجلا بموعظة، كمن فتح له بابا إلى الجنة، إن شاء دخل وإن شاء لم يدخل.

وقيل من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار. قيل: فمن كان له واعظ من نفسه، أو غيره فقد من الله عليه، ومن لم يكن له واعظ من نفسه أو من غيره فهو الخاسر.

وقيل أيضا: أفضل المجالس، مجلس يجعله الرجل مع نفسه فيعظها، ويذكرها ويبصرها عيوبها، ويعدد عليها ما سلف من ذنوبها.

وقيل أيضا: من لم يجعل لنفسه مجلسا لوحدها، لم ينفعه مجالس الدنيا كلها (1).

وذكر عن أبي محمد عبد الله (2). قال: مدارسة

(1) وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم»، وحري بالمؤمن العاقل أن تكون له ساعة يخلو فيها إلى نفسه ليعظها ويحاسبها، كما جاء في الصحف الأولى.
(2) أبو محمد عبد الله بن مانوج: تقدمت ترجمته.

الكتب، وأحاديث الأولين تورث الرأفة في القلب والنور، والإجتهاد في العبادة (1).

وقال: ينبغي للمسلم أن تكون له ساعة يخلو فيها بربه، ويكثر فيها الدعاء، والمناجاة له، والإجتهاد في دعائه، والإستغفار من ذنوبه ومحاسبة نفسه في جميع أموره.

وقالت عائشة رضي الله عنها أفضل الذكر: الذكر الخفي الذي لا تحفظه الملائكة (2).

وقال أيضا: يضاعف عن ذكره من الذكر بسبعين ضعفا (3) (أي الذكر الخفي).

---

(1) فتشبهوا بهم إن لم تكونوا مثلهم، إن التشبه بالكرام فلاح.

(2) (واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية، ودون الجهر من القول). الأعراف: 205).

(3) لأنه يدل على الإخلاص وصدق المناجاة.

وقال أيضا: «من أعطي الدعاء لم يمنع الإجابة»، لأن الله تعالى قال: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ (غافر: 60)

وقال الشيخ (أبو زكرياء) لو كان الرجل بمطلع الشمس، والآخر بمغربها يحفران بأظفارهما حتى اجتمعا فيسألان الله لم يجابا (1).

وقال الشيخ: إذا اجتمع رجلان فدعا الله أحدهما نية، وقال الآخر آمين بغير نية رفعت دعوتهما (2) بنيته، إن دعا أحدهما بلا نية، وقال الاخر آمين بنية رفعت دعوتهما بنيته (3).

وقال أيضا: «الدعاء مخ العبادة» (4)، فلا تغفلوا عنه سراً وجهراً، وحدك أو مع الناس، وأفضله إذا خلا العبد

(1) لعدم إخلاصها النية لله عز وجل كما سيتضح في الفقرة الموالية.
(2) أي قبلت.
(3) يشير هنا إلى أهمية حضور القلب أثناء الدعاء، وضرورة استصحاب النية حين نتوجه بالدعاء كشرط لقبوله وارتفاعه إلى الله عز وجل، وان لم نفعل، غدا دعاؤنا تمتمة لسان فارغة من روح الدعاء ولبه بوصفه تذللا وضراعة، وتبتلا بين يدي الرحمن.
(4) هو حديث لرسول الله ﷺ رواه الترميذي عن أنس.

بربه.

باب في التحذير من التعصب للقبيلة والعشيرة بغير حق

فكان ينهى عن التداعي بالقبائل: أن يقال نحن بنو فلان ونحن بنو فلان.

وقال غيره: ليس منا من يجلس في بيته، ويعد أهل بيته وقرابته (1)، فيقول: نحن بنو فلان في كذا وكذا (2)، وليس منا من يصقل رمحه ويسويه ويدهنه، ويوقفه على باب خصمه (3).

وليس منا من إذا ربط العمامة سواها على جبهته وفرشها (4)، وقد كره هذا كله لأنه يجر إلى الحمية

---

(1) تكاثرا وافتخارا.

(2) كثيرون هم أولئك الذين ينتصرون لذويهم وعشيرتهم، عصبية وتفاخرا بالنسب ومآثر الآباء والأسلاف؛ ليس على سبيل الإقتداء وتأكيد الثقة بالنفس لمواصلة بناء الأمجاد، فذلك مطلوب ومحمود، لكن المذموم أن يلجأ المفاخر إلى ذلك استعلاء وتعاظما، أو تبريرا لكسل وقعود وإلا، فالفتى من يقول ها أنا ذا، وليس الفتى من يقول كان أبي. ثم (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، (الحجرات:13).

(3) قد يعمد إلى ذلك استفزازا واعتدادا ومكاثرة، وهو مذموم والمطلوب بين المؤمنين وإن اختصموا الرفق والتعقل والتواضع أيضا.

(4) نوع من التمايز في لحاف الرأس بين الشيخ طريقته، ينطوي على تفاخر، وتخصيص للمسلمين بعضهم ببعض، بتوضيح أكثر، تمييز اللباس وطرائق اتخاذه مطلوب ليمتاز المؤمن عن غيره من الملل والنحل أما وأن يتخذ هذا المسلك بين قبائل المجتمع المسلم تمايزا وافتخارا وتكتلا قبليا فهو «استطالة وما لا يليق بأهل الخير».

والعصبية والكبر، والإستطالة وما لا يليق بأهل الخير.

وقال أيضا: من كان لقبيلته منهم سهم. إذا ذكروا (عشيرته) بسوء تغير وجهه واغتاظ بقلبه، وإن كانت لهم حوائج مع غيرهم في خصومة أو غير ذلك، فلا يستوون عنده مع غيرهم (من العشائر الأخرى) (1). فهذا قلت نجاته وخلاصه، إلا أن ينجيه الله. ولا ينبغي للمسلم إلا أن يكون مع الحق قريبا كان أو بعيدا، حبيبا كان أو بغيضا رفيعا كان أو وضيعا (2).

باب في بيان أهمية النصيحة وآدابها

وكان يقول رحمه الله: أحسنوا صحبتكم بعضكم لبعض، واجعلوا تآخيكم لله وفي الله، واحذروا من اختلاف قلوبكم، وسوء الظن بعضكم ببعض.

وقال: لاشيء أقطع للمودة بين الأحبة من سوء الظن. (3)

---

(1) ذلك أن حب الإنتصار للقبيلة حمية وتعصبا يعمي الإنسان عن تحري الحق والعدل، والإنصاف، فلا يرى للناس ما يراه لنفسه وذويه وهو شطط بين طالما زلت فيه الأقدام.

(2) وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن جاءه يشفع في أهله لتعطيل حد من حدود الله: «يأيها الناس إنما هلك الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها».

(3) وقد نهانا الشارع عن ذلك: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم)، (الحجرات: 12).

وقال: لا صاحب لحقود، ولا راحة لحسود، ولا حاجة لملول.

وقال: تشاوروا فيما بينكم، وتناصحوا، وتوادوا، فإن المشورة تجلب المودة، وتذهب الحقد، والضغينة، وتصفي قلوب بعضكم.

قيل: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار» (1).

وقيل عن النبيء ﷺ: «الدين النصيحة، قالها ثلاثا، قيل لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولرسوله، ولدينه. ولعامة المسلمين ولخاصتهم» (2).

فمن استنصح فليبذل النصيحة ولا يكتمها، وليجتهد (في بيان الحق) لمن استنصحه، ولا يكتمه شيئا يراه صلاحا له، ولا يغشه في شيء لأن النبيء ﷺ قال: «من غشنا فليس منا» (3).

---

(1) جاء تحت قوله قيل والواقع أن هذا حديث رواه الطبراني عن أنس.
(1) رواه مسلم.
(3) أخرجه ابن ماجة عن أبي الحمراء.
(4) والأجر به أن يوجهه إلى غيره إن لم يستأنس من نفسه كفاية ومقدرة على نصحه، أو ليسأل من هو أدرى منه وأعلم، أخذا بيده ونصرة له.

قال الشيخ: من استنصح فله الخيار، إن شاء بذل له (لطالب النصيحة) النصيحة، وإن شاء أمسك (4). ، وإن نصحه فليجتهد فيما يراه صلاحا (فيبينه له)، وإن أمسك النصيحة فلا يضره.

وقال الشيخ: فقد الناس من يشاورونه في أمر دنياهم (1). ، كما فقدوا من يستفتونه في أمر دينهم (2).

وسئل أيضا: هل يشاور الرجل من ليس بأمين أو من هو من) أهل الدنيا؟ قال إن كان يعرف كيف يأخذ نصيحة، ويرد نظره، ويميز فيما قيل له، ويعرف الحق من الباطل فليستنصح من شاء ممن يرجو عنده تجريب الأمور وتمييزها (3).

وقال: النصيحة لا تكتم ولا تخاصم:

---

(1) لقلة أولي الحكمة والبصيرة.

(2) لقلة أهل الفقه والنهى.

(3) فتلقى النصيحة بروح نقدية دارسة لحصحصة الحق، يكون تعويضا عن غياب الثقة والأمانة في المسؤول (أهل الدنيا).

(4) لأن النصيحة المبالغ فيها تنم عن إحصاء للزلات، وتتبع للعورات، مما يثير حفيظة من نتوجه إليه بالنصح، أكثر مما تثمر وتصلح، فليحذر من هذا، كما يفعل بعضهم من أبنائهم، يحصون عليهم زلاتهم، ويكشفون سترهم بتدقيق ممقوت، فلا يثمر ذلك تربية ولا ارشادا، وإن كان مقصدهم حسنا، أو لم تر إلى الشيخ يقول: «والنصيحة جيدة إلا أنها تحتاج إلى سياسة».

وقال: المبالغة في النصيحة تورث العداوة (4)، والنصيحة جيدة إلا أنها تحتاج إلى السياسة.

وقال: صارت النصيحة في زماننا نميمة (1).

وقال أيضا: لا خير في قوم لا يتناصحون، ولا يحبون النصيحة (2).

وقال رجل: شاورت الشيخ (أبا زكريا) على صحبة قوم سوء ظلمة جبابرة. فقال: يا ابن أخي: لا أرى لك في صحبتهم خيرا لأنه قيل عن بعض من مضى: لا تصحب من كانت فيه لله ظلامة، لئلا تأتيهم عقوبة فتأخذك معهم، فتركت صحبتهم، واستخرت (3) الله تعالى فيما قال.

---

(1) لعله للذي أشرنا إليه من إحصاء على الناس أقوالهم، وتصرفاتهم ونبش ما غفلوا عنه، وتسامحوا فيه، بدعوى النصح والتوجيه، فليُتق.

(2) لأن من كان خلقه ذاك، فهو متكبر، مستغنٍ، متطاول على خلق الله وعلى الحق، لا يرجى خيره.

(3) أي صليت لله صلاة الاستخارة حتى وجهني للتي هي خير، وصلاة الاستخارة معروفة في فقه العبادة، فلتراجع.

باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثره في الفرد والمجتمع

ثم قال أيضاً: إذا كان قوم في منازلهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كانوا في ستر الله وأمانه ما داموا كذلك، فمن عصى الله منهم في السر أتته عقوبة من عند الله لا تأخذ معه غيره، ولا يزالون على حالهم ذلك، مادام فيهم رجل واحد يأمرهم وينهاهم، فإذا استووا وارتفع منهم الأمر والنهي أتتهم عقوبة من عند الله جميعاً (1)، فلا ترتفع عنهم ما دام فيهم واحد من أولئك لذين أتتهم به العقوبة.

وقال غيره: إن القوم إذا أتتهم العقوبة من عند الله بذنوبهم وسوء أعمالهم، فلم يجددوا التوبة، ولم ينزعوا (2). أتتهم عقوبة أشد وأعظم من الأولى (3).

وقال الشيخ أيضاً: الرجل تكتب له الحسنات، وهو

---

(1) يذكرنا هنا الكلام بحديث رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»، رواه الترمذي.

(2) أي لم ينتهوا.

(3) لأن العقوبة التي سلطها الله عليهم أول مرة، لم تردعهم، ولم تربهم، فيرجعوا عن غيهم، وإذن يحق عليهم العذاب والخراب جزاءا بما كسبوا.

راقد على فراشه وهو لا يشعر بها، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: ذلك إذا كان رجل في قومه يأمرهم بالمعروف وينـاهم عن المنكـر، ويقيم فيهم الحق، وينصف منهم للمظلوم، ويعاتبهم على سوء أفعالهم بما يستحقون، (لكن) إذا حدثتهم نفسهم بسوء يفعلونه في أكل مال أو قتل نفس، أو قطع طريق، أو غير ذلك مما لا يرضاه الله من المنكرات، دبروا رأيهم بينهم، وقالوا: لا يتم لنا شيء من هذا مع فلان (الرجل الناصح لقومه) إن فعلنا شيئاً من هذا أخرج منا الحق. فتركوا الذي حدثتهم نفسهم به، وهموا أن يفعلوه، فخلصوا (إذن) من الوقوع فيه، وخلص غيرهم من ظلمهم وجورهم، فتكتب له (للرجل الناصح) الحسنات وأجر عظيم وهو لا يشعر، والذي تكتب له السيئات، هو الذي كان في قومه لا يأمرهم ولا ينهاهم، إذا خرجوا في ظلم الناس، والجور عليهم، وأكل أموالهم، وقتلهم، وقطع الطريق عليهم (ف) إذا حدثتهم نفسهم بهذا واهتموا به ولعواقب أموره، قالوا لا شيء نخافه، ما دام فيكم فلان (الرجل الذي لا يتخذ موقفاً بإزاء المناكر) فلا يصل إليكم

(1) للقصاص.

ويطلبكم في جناياتكم(1)، فمضوا في ظلمهم، وجورهم، ووقعوا في البلاء والذنوب العظام، ووقع أيضاً غيرهم في البلاء، لا هم سلموا من الذنوب، ولا غيرهم سلم من ظلمهم، فكان هذا شريكهم في الظلم، فتكتب عليه الذنوب والخطايا، وهو راقد في بيته لا يشعر.

باب في التحذير من فتنة الدنيا

وقال: كان يحذر من الذنوب، والطلب لها، والميل اليها، والركون إليها، وقال للذين كانوا معه من الطلبة: لا شيء أضر لطالب العلم والخير من انقسام الهمة فإذا انقسمت همته، لا يصح له ما هو طالب (من العلم)، ولا الذي اهتم به من غير ما طلب (1).

وقال أيضاً: الدنيا بحر عميق، قد غرق فيه بشر كثير.

وقال أيضاً: الدنيا غرارة (2)، خداعة، لها حبائل،

---

(1) لأنه يكون مشتت البال، من حيث أن نفسه تهفو إلى اقتراف الآثام، واتباع الشهوات، مما يبعد عنه التركيز المطلوب في تحصيل العلم.

(2) غرارة من التغرير أي معرضة للهلاك.

(3) والواقع أن الدنيا ليست ضرة للآخرة إلا لمن طغى آثرها، فاللبيب الحكيم يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا، فالجمع بينهما ممكن إذن شريطة أن تكون دنيا المسلم في حدود يديه دون أن تغشى شغاف قلبه فتسلبه ويقع في شراكها. كما أنها مطية لأخراه.

ومصائد لا ينجو منها إلا من عصمه الله.

وقيل أيضاً: هي (الدنيا) ضد الآخرة، فلا يجتمع طالب الدنيا، وطالب الآخرة، ولا يرضيهما جميعاً، إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى، وقدر دخولك في إحداهما (يكون) خروجك من الأخرى (3)، فاحذر الميل إليها، فإنه حيث مال الحمل يقع.

وقيل: أوحى الله إلى الدنيا فقال لها: «من خدمني فاخدميه ومن خدمك فأتعبيه» (حديث روى شبه القضاعي عن ابن مسعود).

وقيل: الدنيا دار من لا دار له، وإليها يسعى من لا عقل له، وأهل الدنيا هي أمهم وهمهم وطلبتهم، عليها يتحابون، ومن أجلها يتباغضون، وفيها يتنافسون وعليها يسعون.

وقيل: الدنيا مثل ظلك إن طلبته تباعد عنك وإن هربت منه تبعك.

وقيل أيضاً: من كانت الدنيا همه فرق الله عليه شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولا يأتيه إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة همه جمع الله شمله، وجعل غناه

بين عينيه وأتته الدنيا وهي راغمة. (هذا في الواقع حديث أخرجه الطبراني وابن النجار بلفظ مشابه).

ليست الدنيا فتنة كلها، بل منها ما هو محمود ومطلوب ومن طلب حلالاً ليستربه على نفسه ويتقوى به على طاعة الله، ويقدم منه لمعاده ويوم فقره، فليس بطالب للدنيا.

وقيل: من بات كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً له (1).

وقيل أيضاً: من ظل في نهاره يسعى في حلاله، حتى أتاه الليل فأخذ مضجعه راقداً، فلا يقوم من رقاده إلا وقد غفرت ذنوبه كيوم ولدته أمه. وهذا كله إذا لم ينشغل عن أداء فرائضه، ولم يقطع ذلك بآخرته (2).

وقيل أيضاً: طالب الحلال كالضارب بالسيف في سبيل الله.

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط بلفظ من أمسى كالا.

(2) كان ينوي بسعيه التعفف، والإستعانة بدنياه على آخرته.

(3) لشدة الحاجة إلى المواساة ولو بلقمة، أو شق ثمرة، وإلا فبكلام طيب لاشتداد الأزمة والكربة، والجنة تنال بكلمة من الخير، لأنك إن لم تجد ما تنفقه، فالكلمة المواسية والمسلية في هذا الظرف العصيب تورثك الجنان.

وذكر من الشيخ أبي زكرياء: لو يزاد على ما قاله المسلمون، لقلب كالضارب بسيفين لأنه زمان الحاجة.

وقيل أيضاً: إذا وقعت مجاعة في الأرض تدرك الجنة بقبضة طعام، وإذا كان قحط في الإسلام، تدرك فيه الجنة بكلمة من الخير (3).

وقيل أيضاً: شر الناس كلهم الصحيح الفارغ الذي لا تجده في شغل الدنيا ولا في شغل الآخرة.

وقيل: دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد، فوجد فيه شاباً متعبداً، فقال له: ألك سعة؟ (1). فقال: لا، فقال له: من حمل مؤونتك؟ فقال: المسلمون، فعلاه بالدرة (2)، فقال له: أتكون عائلا أو كالا على المسلمين؟

وقال الشيخ: خير ما يسر به المرء كد يمينه، وعرق جبينه.

---

(1) من رزق. (2) عصا

(3) لا يكاد الطامع يشبع من عطية، فهو أملس كالصخرة، يظل لاهقا، ولا هثا وراء ما ليس له. فهو طبع ذميم متى استحكم في النفس لا تستقر قدم صاحبها على رضى أو استغناء.

(4) وروي عن النبيء ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»، رواه ابن ماجه..

وقال: إياكم والطمع، فاحذروا، فإنه الصخرة الملساء التي لا تستقر معها الأقدام(3).

وقال أيضاً: من أراد رفع درجته عند الله فليكثر سؤاله (الله)، والطمع فيه، ومن أراد أن يعظمه الناس، ويكون محبوباً عندهم فليقلل (من) سؤالهم، وليقطع الرجاء منهم، ويرده إلى الله تعالى(4).

وذكر عن نفوسة في زمانهم (أهل التقوى والعلم) وعزمهم، واجتهادهم أنهم قسموا دهرهم ثلاثة أثلاث: ثلثاً للدنيا لصلاح معيشتهم، وحرثهم وحصادهم، وثلثان لآخرتهم، فأعطوا ثلثا للدنيا وثلثين للآخرة، شهران للحرب، وشهران للحصاد، وثمانية أشهر للعزم والاجتهاد لآخرتهم، فنظروا من الثمانية الاشهر فوجدوا أنه لا يصح عزمهم واجتهادهم إلا بالأربعة أشهر التي

(1) أي لا تصح الدنيا بالآخرة والعكس ومن أجل ذلك قيل الدنيا مطية للآخرة ووسيلة إليها. وأمرنا بالدعاء «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة»، (البقرة: 201)، والواقع أن جمعهم الأربعة إلى الثمانية أي ضم حصة سعي الدنيا إلى حصة الاخرة ليس مستقيما كما بينا سابقا، اللهم إلا أن اعتبروا السعي على الرزق وابتغاء فضل الله جهادا وعزما فينقلب بالنية حرثاً للآخرة.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) من سلب وسرقة.

هي للحرث والحصاد، وأجمعوا على (أنه ينبغي أن تكون) للآخرة الأربعة والثمانية (جميعاً) إذ لا تصح هذه إلا بهذه (1).

وقال الشيخ أبو محمد (عبد الله بن مانوج) (2). : كسب المسلم الحرث والحصاد، وكسب الغنم، فكسب الغنم قد زال في زماننا هذا بالقحط وكثرة الغارات (3).

وقال الشيخ أيضاً في فضل الحرث: من حرثها وبقيت في التراب ولم تنبت فإن ثوابها أفضل من التي نبتت، وأخذت (1). واستوت، وجاءت على ما قاله الله في كتابه مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ (البقرة: 261)

فجاء كل ما حث على هذا الحساب فحصده ودرسه ورفعه وطحنه بنفسه فأطعمه المسلمين، والله الموفق

(1) لعل ذلك ترغيبا للمسلمين في الزراعة والصبر على متاعبها، وإن لم تستجب الأرض فتخرج نباتها لسبب ما، يقول الشيخ ذلك دفعا لليأس من هذه المهنة الشريفة مع ما فيها من تعب وعناء وملل.
(2) أي سائر المسلمين ولو من أهل الخلاف.
(3) من أهل ولايته من الذين تبين له حسن إيمانهم وزكاتهم.
(4) المؤمن الحقيقي، المرضي عند الله عز وجل.

للصواب.

باب في بيان الصدقة وفضلها وسبلها

وقال أيضاً: من تصدق على من يدعي الإسلام على وجه الإسلام (2). كمن تصدق على مسلم عنده، ومن تصدق على مسلم عنده (3). كمن تصدق على مسلم عند الله ومن تصدق على مسلم عند الله (4) قليلاً أو كثيراً، ولو مقدار ما يضع عليه ضرسه أطعمه الله من ثمار الجنة وأسكنه فيها أبداً.

وقيل: من تصدق على مسلم بدرهم خير ممن تصدق بألف درهم على غيره (1).

وقال أيضاً: من أنفق من ماله في طلب العلم أو في

---

(1) لأنه (المسلم) يستعين بما نتصدق به عليه على الطاعة والعمل الصالح المفيد، فيكون نفع صدقتك أدعى المثوبة في الآخرة إذ يلحقك ثواب عمله، مع استفادة صلاح في الدنيا لأن المسلم لا يفعل إلا خيراً.

(2) هو أبوحين* هم المعز بالإنتقال إلى القاهرة طلب من أبي خزر مرافقته بدعوى أنه لا يستغنى عن علمه ومشورته، لكنه يريد أن يضمه إلى جانبه خوفا من أن يثور عليه من جديد في غيابه، وهو من هو من ذيوع الصيت وقوة المكانة والشخصية في قومه فوافقه ابو خزر على الرحيل ليعيش بقية أيامه في مصر عيشة رغد وهناء، هذا، وقد ترجم له الدرجيني في طبقاته. ص 340 وما بعد.

* متروك.

العزم فيه على نفسه أو على غيره أو يعين به الطلبة في أمر الطلب. . درهماً كمن تصدق بألف درهم.

باب في فضل الانتفاع بالعلم والعمل به

وذكر عن أبي خزر (2). رحمه الله أنه يكثر (من) دراسة الكتب، ويرغب في الفضائل التي وجد (ها) فيها، إذا رأى فيها (أي في الكتب) من عمل هذا فيصيب هذا (من ثواب وفضل)، كان ذلك شديداً على نفسه حتى يعمل هذا (العمل) لحرصه على الخير واجتهاده فيه (1). وقال الشيخ أيضاً: من سمع حديثاً، أو رآه في كتاب (فيه) من فعل هذا فيصيب هذا (الأجر) عند الله، ففعله رجاء وطمعاً أن يصيب (ما) عند الله (فإن ما عند الله من

(1) يعني أبا خزر في مطالعاته في أبواب فضائل الخير وجزائها حين يصادف أن تصدق بحسنة كوفيء بعشرة أمثالها (مثلا)، لا يهدأ له بال حتى يتصدق بالحسنة لينال ذلك الخير ويصيبه، أي العشر حسنات.

(2) «للنية»، وللثقة التي وضعها القارىء في الرواة، ونقله الحديث، ولتسليم المؤمن بكلمات الحديث تعظيما منه للنبي ﷺ، وتصديقا له، فيكون ثوابه من هذه الجهة مضاعفا.

(3) بالمجاهد، والضبط، والتزكية.

(4) لاشتداد الفتن، وضعف الدين، فالأجر فيه أعظم لأن القابض على دينه كالقابض على الجمر كما تقدم، ولأن جهاد الواقع وظروفه، والإستعلاء عليه، أصعب وأشد على النفس من جهاد يكون في خير القرون من زمن أبي بكر وعمر.

مثوبة) يصيبه، وإن كان الحديث، أو ما رآه غير صحيح (سنداً أو متنا) فيصيبه ذلك (الأجر) ضعفين (2). وقد وقعنا على مثل ذلك في كثير من الكتب.

وكلام آخر عن آخر الزمان، وغربة أهل الحق فيه

وقال الشيخ أيضاً: المؤمن في آخر الزمان المعالج لنفسه (3). خير من سبعين مثل أبي بكر وعمر (4).

وقال أيضاً: من حقر أهل زمانه، لو أدرك أبا بكر وعمر لحقرهما (1).

وقال أيضاً: يأتي على الناس زمان يتدافع فيه الناس الإسلام فيزعم هؤلاء أنه عند هؤلاء ويزعم هؤلاء أنه

---

(1) ذلك أن من الناس من تطبع بالنقد من أجل النقد واللجاج، والتجريح وإحصاء سقطات الكرام وزلاتهم دون أن يقدم هو نفعا أو نقدا بناء، هذا الطبع المنبوذ استحكم في نفوسهم، فحقروا علماءهم وأفاضلهم، وأهل زمانهم ولو أدركوا أولي الفضل الأول لحقروهم أيضا.

(2) ذلك أن الإسلام لم يعد عندهم سوى انتسابا وادعاء يمثل شعارات جوفاء، الأمر الذي جعله «خارج منهم كلهم».

(3) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة وأنس.

عند أولئك، وهو خارج منهم كلهم، نعوذ بالله من سوابق الشقاء (2).

وقال النبي ﷺ «بدأ هذا الدين غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء في ذلك الزمان، قيل وما الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون أنفسهم عند فساد الناس» (3).

وقيل أيضاً: ليس الغريب من مشى من بلد إلى بلد، ولكن الغريب رجل صالح بين قوم سوء (1). وقال أيضاً: إذا فسد الناس حلت فيهم العزلة والغربة (2). (فقد) فسد الناس، فأين المهرب؟ ظهر الحرام، فأين رزق يطلب؟

تم ما وجد والحمد لله.

---

(1) حقا، يشقى بالبقاء فيهم، حيث لا يجد عونا للصلاح، ولا بيئة ملائمة للتقى، والحشر مع غير الجنس عذاب.

(2) حين لا يجدي معهم نصح ولا توجيه، فليس منهم رجل رشيد عندئذ: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)، (المائدة: 105).

• • • وختاما أيها الأخ المحب:

ختاما، وحتى لا يكون عملنا ذا فضول علميا فقط، وبعثا للأمجاد والتراث؛

ماذا، لو اقترحت عليك حصيلة عملية، كعصارة للسير نتعهد عليها؛ نسميها: «دستورا من السير» أو «ميثاق أبي زكرياء»، أو ما شئت، فلا مشاحة في الإصطلاح:

هذا الميثاق يحوي مواد أربع:

■ **المادة الأولى:**

أن نخلص الدين لله وحده، فلا ننتصر إلا للحق الذي عليه قامت السماوات والأرض، وننبذ دعاوي العرق والعصبية للقبيلة والعشيرة، ولا ضير إن عرفنا بذلك في الأوساط فإنا عما قريب إلى ربنا منقلبون «وقالوا لا يتم لنا شيء من هذا (الباطل) مع فلان، وإلا أخرج منا الحق»، (أبو زكرياء ص: 66.65).

■ **المادة الثانية:**

أن نستيقظ قبيل فجر كل يوم، ولو بربع ساعة، لنقوم لله عز وجل، ولو بركعتين «فأحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل»، لنظل بعدها قابعين في مصلانا متبتلين «ومستغفرين بالأسحار»، حتى إذا ثوب للصلاة هرعنا إلى أقرب بيت من بيوت الله فنصلي الصبح جماعة مع أولئك «الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، يريدون وجهه»، الدعاء مخ العبادة، فلا تغفلوا عنه سرا وجهرا، وحدك أو مع الناس» (أبو زكرياء: ص 62).

■ **المادة الثالثة:**

أن نصطفي لأنفسنا أوقاتا نفرغ فيها لمحاسبتها، وتقويم مدى تهذيبها وزكاتها، «وأفضل المجالس، مجلس يجعله الرجل مع نفسه، فيعظها، ويذكرها ويبصرها عيوبها، ويعدد عليها ما سلف من ذنوبها» (عن أبي زكرياء ص: 61).

■ **المادة الرابعة:**

أن نلبي النداء لشهود جماعات الصلوات، حين ينادى بهن، ولن يفوتنا من الدنيا شيء ذو بال، إن كنا «رجالا» نلوذ ببيوت الله طرفي النهار وزلفاً من الليل، «والدنيا مثل ظلك إن طلبته تباعد عنك، وإن هربت منه اتبعك» (أبو زكرياء ص: 64).

فلو افترقنا على تكريس هذه الالتزامات عمليا، واصطبغنا بها سلوكا وواقعا إذن لعلمنا الله «واتقوا الله ويعلمكم الله»، وإذن لكان حقيقا علي أن أنصب

لإخراج كتاب أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر، بحول الله وعظيم منّه.

يجدر بي وأنا أنهي هذا العمل شكر الله عز وجل على ما سهل ويسر، وشكر من مدّني بعون حتى أتممت هذا العمل المتواضع، وأخص بالذكر شيخي الفاضل الأستاذ قشار بالحاج، على ما بذله معي من جهد في الإرشاد والنصح.

وكذا أخي الفاضل أحمد كروم الذي ساعدني بكثير من الأمهات والمراجع، وتفضل بإخراج أكثر أحاديث السير.

فجازى الله الجميع عنا وعن الإسلام خيراً.

المراجع

1) الإباضية في موكب التاريخ (الإباضية في تونس) لعلي يحيى معمر، مطبعة سميا، بيروت، الطبعة الأولى.

2) السير لأحمد بن سعيد الشماخي، طبعة حجرية قسنطينة.

3) سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر، تحقيق وتعليق اسماعيل العربي، طبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (أحمد زبانة)، الجزائر 1979.

4) سير مشائخ المغرب لأبي الربيع الوسياني، تحقيق اسماعيل العربي، (ديوان المطبوعات الجامعية).

5) طبقات المشائخ بالمغرب لأحمد بن سعيد الدرجيني في جزأين، تحقيق الأستاذ إبراهيم طلاي، طبع قسنطينة 1974.

فهرس الأشخاص والأماكن

ابراهيم (ابن آبراهيم)
أبو بكر (الخليفة الراشد)
أبو بلال (مرداس)
أبو بكر (بن يحيى)
أبو بكر (الزواغي)
أبو القاسم (يونس بن أبي زكرياء)
أبو خزر (يغلا بن أيوب)
أبو الربيع (سليمان بن يخلف)
أبو زكرياء (فيصل بن أبي مسور)
أبو صالح (بكر بن قاسم)

أبو عمار (عبد الكافي)
أبو عبد الله (محمد بن بكر)
أبو عبد الله (محمد بن سدرين)
أبو علي
أبو محمد (عبد الله بن مانوج)
أبو محمد (ويسلان)
أبو محمد (كموس)
أبو مسور (يسجا بن يوجين)
أبو يحيى (زكرياء)
ابن عباس (عبد الله)
ابن وانموي
تغرمين
تمولست
توتير
جربة
جابر (بن زيد)
الدرجيني (أحمد بن سعيد)
زكرياء (ابن أبي زكرياء)
زواغة
زيري (الرنداجي)
قابس
سليمان (ابن ماطوس)
الشماخي (أحمد بن سعيد)
عمر (ابن الخطاب)
علي (ابن أبي طالب)

عبد الله (ابن عمر)
عائشة (أم المؤمنين)
عمرو (بن العاص)
عبد الله (بن قيس)
لالوت
منجا (ابن عقيل)
نفوسة (الجبل)
النهروان
النكار

الفهـــرس

الاهداء	٦
مقدمة لفضيلة الشيخ قشار بالحاج	٧
بين يدي الكتاب	١٣
حول المنهجية	١٥
حول المؤلف	١٨
حول تسمية بكتاب السير	٢٤
فمن هو أبو زكرياء؟	٣١
كتاب السير (مقدمة)	٣٨

الفصل الأول

باب في طلب العلم	٣٩
واجبات المتعلم والمعلم	٤١
أخلاقيات تخص العالم	٤٣
غايات العلم، وأهداف التعلم	٤٥
وإن للعلم آفات	٤٦
باب في «التحذير والتخويف من القول بغير علم	٤٩
وجملة اخرى من آداب العالم	٥٥
بأي شيء تحيى القلوب	٦٣

الفصل الثاني

كيف تضيع السنن، ويموت الدين	٦٦
الناس وآخر الزمان	٦٨

الفصل الثالث

باب في التوبة من الذنوب ٧٢

باب في التحذير من اللغو وآفات اللسان ٧٣

باب في الحث على العزلة إذا فسد الناس ٧٦

باب في اختيار الصاحب الصالح ٧٨

باب في الإخلاص ٨٢

باب في الحذر من فتنة النساء ٨٥

باب في الخلوة بالنفس لوعظها ومحاسبتها ٨٧

باب في أهمية الدعاء وآدابه ٩٠

باب في التحذير من التعصب للعشرة بغير حق ٩١

باب في بيان أهمية النصيحة وآدابها ٩٢

باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثره في الفرد والمجتمع ٩٦

باب في التحذير من فتنة الدنيا ٩٨

ليست الدنيا فتنة كلها، بل منها ما هو محمود ومطلوب ١٠٠

باب في بيان الصدقة وفضلها وسبلها ١٠٤

باب في فضل الانتفاع بالعلم والعمل به ١٠٥
وكلام آخر عن آخر الزمان وغربة أهل الحق فيه ١٠٦
وختاما ١٠٨
فهرس المراجع ١١٢
فهرس أسماء الأشخاص والأماكن ١١٣
فهرس ١١٥